

لجنة الخبراء
بمصر:
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
بالقاهرة

محمد صلى الله عليه وسلم وبنو إسرائيل

تأليف الدكتور
مصطفى كمال مصطفى

الكتاب السابع
١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

مقدمة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
« ونصرت بالرعب على مسيرة شهر »

(صحيح)

ناحية تتمثل فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم وجهاده تحتاج الى
الابرار والظهور ، تلك هى مجابهته للفتن الداخلية والعقبات التى اعترضت
دولة الاسلام فى أول نشأتها وتكوينها .

فقد تداولت الأقلام الاسلامية خلق النبى صلى الله عليه وسلم من نواح
عديدة وعرضت الرقة واللين والرافة من حياته الكريمة الشريفة . وبينت
كيف كان مع أزواجه وذوى قرباه وصحابته ولكنها لم تتعمق كثيرا فى حزمه
وجلاله وقوته فى مجابهة أعدائه وكيف جال معهم جولات الشدة والسياسة
حتى أقام أقوى دولة ظهرت فى التاريخ من العدم ، وحقق بها أسمى مراتب
ما عرف من النجاح والكمال .

ولا شك أن سياسة الدولة الناشئة التى تقوم فى جو من الدسائس
والتآمر والفتن والسلوك بها الى مرتبة الاستقرار ثم القوة والسيادة هى
أرفع السياسات ولا يقوم بها الا أفدر الساسة وأقواهم ممن تتوفر فيهم أعلى
الصفات الشخصية والقوة .

وفى التاريخ أمثلة عديدة من الساسة والقادة والرؤساء ممن نهضوا
بجماعاتهم وبوؤوها المكائنة العالية وخلفوا من بعدهم تراثا تقدم بالانسانية
ونهض بها ، ولكن ليس بينهم من حقق النجاح الكامل الشامل كمحمد صلى
الله عليه وسلم وحاشا أن يقارن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحدهم وانما
هو خطاب لأهل الدنيا بمقاييسهم .

فقد تكاملت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كل نواحي الكمال . فكان آية في الحكمة والكلام الجامع والمعرفة الحقّة والعلم الصحيح . وكان نهاية في الخلق العظيم والسلوك القويم . وغاية في شئون السياسة والقيادة . والخطابة وعنوانا في حسن المظهر وجمال السمات وأناقة اللفظ والشوب ورقة الشعور وكل ما يترين به الرجل المهذب الأنيق في أرقى المجتمعات .

وكل هذه العناصر المتباينة اجتمعت لبدوى أمي يتيم نشأ في بيئة قاسية في جوها وظروفها ليست على شأن اذا قورنت بحواضر ذلك الزمان . فهو لم ينشأ في مدينة من حواضر العلم والثقافة والمدنية كالقسطنطينية أو انطاكية أو الاسكندرية أو روما . ولم تكن مكة مهما قيل في أنها طريق القوافل والتجارة جديرة بأن تخرج هذا الكمال الانساني في أى وقت من الأوقات ولم يحضر على عالم مشهور أو ينشأ في بلاط حاكم كبير حتى يتعلم المعرفة والحكمة والسياسة ولم تكن تلك البيئة الخشنة لتخرج تلك الرقة والدمائة والسمو .

وذلك برهان على أنه من الله وليس من نفسه أو بيئته .



وان اجتماع الرأفة الشديدة واللين والرحمة مع الحزم والشدة والقوة في شخصه صلى الله عليه وسلم دليل كماله الانساني . فالكمال في التوسط بين النقائص وعلاج المواقف بما يناسبها .

ولقد أكثر قادهوه من القول ان النبي يكون روحانيا خالصا ولا يكون له نصيب من الدنيا . وهذا جهل أو تجاهل . فالأنبياء بشر . والانسان المنصرف الى آخرته فقط التارك لدنياء أدنى ممن جمع الآخرة والدنيا . وتفوق في سبيلها . ولقد ضرب الله بالنبي صلى الله عليه وسلم مثلا بالانسان الكامل الجامع في قوة روحانية وسمو معنوياته وفي درايته بالدنيا وخبرته فيها وتفوقه في شئونها فان قارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقيادة أو الساسة أو حتى أهل الذوق والجمال لفاقهم ولو قارناه بذوى الرسالات والروحانيين لكان أفضلهم أجمعين .

ولقد أردت من عرض هذا الموضوع أن أضيف الى ما علم عنه صلى الله عليه وسلم فى نواحى الروح والمعنى ، صفحة عن خبرته فى شئون السياسة والدنيا .

بل أعرض فى هذه الصفحات فصولا فى السياسة تستحق أن تؤثر عنه وتسجل وتحلل ، ليستخلص منها ما يفيد الساسة والقادة فى علاج شئون البلاد .

وبخاصة فى ظرف نجتازه الآن والبلاد تخوض معارك الفتن ومؤامرات التحدى فى الداخل والخارج وتسلك سبيلا هو الى النصر ان شاء الله والى خير ما يرضاه الله .

ولقد تبين لى من الرجوع الى المراجع غير الاسلامية أن المحايدين من المؤرخين قد وضعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قمة رجال السياسة ، ذلك بأنهم حكموا على أعماله من نتائجها وحللوها أسباب تصرفاته على ضوء ما تبين لهم الآن وما اتضح من معاملها بعد زمانها . ومن ذلك ما جاء فى دائرة معارف الاسلام فى مواضع عديدة تنقل منها حكمهم على معاهدته مع أهل المدينة من أنها أظهرت مواهبه السياسية الكبرى

it reveals his great diplomatic gifts for it allows the ideal which be chrished of an umma.

وتأثر الكثيرون من مؤرخى الاسلام الحديثين بذلك فحللوا تصرفاتهم على ضوء الدوافع السياسية والنتائج التى حققها .

أما المؤرخون العرب القدامى فقد وقفوا عند حد العرض والتسليم لكونه صلى الله عليه وسلم معصوما من أفعاله التشريعية يصدر فيها عن الوحي ، وقليلون تنبهوا الى مقتضيات السياسة والظروف فيما فعل . أما رأيى فى ذلك فهو أنه كان صلى الله عليه وسلم يتصرف بلا شك بهدى من الوحي وان نجاحه كان بتوفيق من الله وليس لنا علم بحقيقة دوافعه وتحليل أفكاره ما لم يعرب عنها صلى الله عليه وسلم صراحة فى أحاديثه .

ولقد كتب الكثيرون فيما سموه بالسياسة الشرعية ولكنهم نحوا فيها نحو الفقه ولم يعرضوا أصول علم السياسة كما جاء بها الاسلام مع أنها قد حققت لدولة الاسلام الناشئة فى أضيق الظروف وأقساها وأعنفها نجاحا منقطع النظير ومن هؤلاء أبو الحسن الماوردى وأبو يعلى الفراء وابن تيمية وابن القيم الجوزية وابن قتيبة وغيرهم ، ولكنهم اقتصروا على التطبيق فى بعض النواحي دون التأسيس وتأثر بعضهم بمقتضيات الظروف وقت كتاباتهم . وتعرضت بعض الكتب العربية لنواح من السياسة . فأورد ابن خلدون فى المقدمة آراء سياسية وأورد بعض أصحاب الأخبار فى الأغاني والأمالى والعقد الفريد وصبح الأعشى ونحوه طرافات عن السياسة والسلطان . وكتب بعض فلاسفة العرب فى هذه النواحي أيضا ولكن لم تكن العناية الكافية بوقائع هذه الملحة التى نعرضها والتى تستحق كل الاهتمام والتدبر .

ولقد اخترت معركة النبى صلى الله عليه وسلم فى دولته الناشئة ضد بنى اسرائيل بالذات لسببين ، أحدهما أنهم من أقسى الخصوم وأقواهم ممن دوخوا الأنبياء من قبله ومن شهد لهم بالدهاء وهم بعد ليسوا الا مثلامن يوجد على منوالهم فى كل عصر وكل زمان . فلزم عرض أسلوب النبى صلى الله عليه وسلم معهم لبيان معركة من المعارك العنيفة التى خاضها عليه الصلاة والسلام مع هؤلاء الخصوم الألداء وكيف عالجهم حتى انتصر عليهم كما لم ينتصر أحد ممن قبله أو بعده . والسبب الثانى أننا فى حرب مع اسرائيل وما زالت تتربص بنا الدوائر وتواجهنا بأساليب المكر والدهاء وتناوشنا من قريب أو بعيد ببعض ما ناوشت به رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام حتى كسر شوكتهم وأذلهم وانتصر عليهم .

ففى هذه الصفحات أعرض لمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل السياسة ، ومنشئ الدولة الاسلامية الفتية الذى جابه أعنف الأعاصير والفتن وقاوم أحد أساليب النفاق والوقيعه وجابه الأعداء فرادى أو جماعات بأنواع من السياسة والحزم والعلاج ، ما بين اللين والتسامح ، وما بين الاعذار والانذار ، وما بين القوة والشدة والبر وما بين الحرب والجهاد . ونراه يصبر ويتجاهل وطورا يحلم ويتجمل . وطورا يوسع ويفسح وطورا يتجلى

بالقهر والعنف والشدة حتى قاد السفينة الى بر الأمان وترك بين أيدي خلفه
تركة قوية ووسيلة قادرة فعالة فمنهم من أحسن القيام عليها فأتت أكلها
وأوفت بجنيها وثمارها . ومنهم من نام عنها أو جنبها طريقها فظلم بها وكل
ذلك والأعداء في كل حين متربصون . وقد رأينا في كل وقت كيف تونغ
الثمار في بلدنا وتبادر الى جنبها كلما بذل في أرضنا الطيبة الجهد والاخلاص
وكيف وثب صلاح الدين الأيوبي بالبلاد الى ذروة السيادة وكيف ثب الى
قمم النجاح في عصرنا مما يدل على حيوية العناصر وصلاح التربة وخصبها
ومما يحيى آمالنا في قرب البلوغ وسهولة الوصول .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الفصل الأول

صفات بني إسرائيل وأخلاقهم

نشأة بني إسرائيل :

نشأ بنو إسرائيل في مصر من نسل أولاد يعقوب عليه السلام الذين هاجروا إليها عقب دخول يوسف عليه السلام الى مصر وتبوئه أمانة الخزانة منها واستدعائه لأبويه وأخوته بنيامين والأسباط عليهم السلام .

ويعقوب هو إسرائيل وقد سماه الله كذلك في قوله تعالى « كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل الا ما حرم إسرائيل على نفسه » . (آل عمران - أول الجزء الرابع) .

وكان يعقوب مسلماً على ملة آبائه إبراهيم واسحق ووصى بنيه من بعده بالاسلام وقال الله تعالى « ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب : يا بني ، ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتن مسلمون » (البقرة الآية ١٣٣) وقال « اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد الهك واله آبائك إبراهيم واسماعيل واسحق ، الهنا واحدا ونحن له مسلمون » (البقرة الآية ١٣٣) .

واذا كان الأنبياء على دين الاسلام فان أقوامهم قد انحرفوا عنه وقال الله تعالى « انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا » (المائدة ٤٤) وقال « ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » (آل عمران الآية ١٩) .

ولما بعث الله موسى وهارون عليهما السلام ، طلبا من فرعون أن يرسل
معهما بنى اسرائيل مهاجرين من مصر بعد أن استحكم فيهم الظلم ، يقتل
أبناءهم ويستحيى نساءهم أى يتركهن على الحياة .

ثم هاجر موسى وهارون ببني اسرائيل شرقا طالبين فلسطين ، فادركهم
فرعون عند البحر ، فأوحى الله الى موسى أن يضرب بعصاه البحر فانفلق
ماؤه عن طريق سلكه ببني اسرائيل وتبعهم فرعون وجنوده ونجى الله موسى
وقومه وأغرق فرعون ومن معه فى البحر .

نعمة الله على بنى اسرائيل :

وقال الله تعالى مذكرا بنى اسرائيل بنعمته عليهم « يا بنى اسرائيل
اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى
فارهبون » (سورة البقرة الآية ٤٠) .

وقال « يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وانى فضلتكم
على العالمين » « واذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون
أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم . واذ فرقنا بكم
البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون . واذ واعدنا موسى أربعين
ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . ثم عفونا عنكم من بعد ذلك
لعلكم تشكرون . واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون » وقال
« وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما
رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (سورة البقرة الآية ٤٧ وما
بعدها) .

وقال الله تعالى فى محكم كتابه « واذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا
نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا
من العالمين » (سورة المائدة الآية ٢٠) .

وقال الله تعالى « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون (يعنى بنى
اسرائيل) مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك
الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا » (الاعراف الآية ١٣٧) .

ذلك بأن الله بعد أن أنجاهم من ذل فرعون لهم ، وتجلّى عليهم بآياته
 البينات فشاهدوا نصر الله لهم وآياته الخارقة للعادات بأن فرق البحر وفجر لهم
 العيون وأرسل عليهم المن والسلوى وهما من أنواع الطعام قيل الأول مثل
 العسل والثاني هو طير السمانى (السمان) وبعد أن عفا عن ظلمهم وكفرهم .
 مكن لهم فى الأرض وجعل لهم دولة وملكا ، وكان لملكهم نبي الله سليمان
 عليه السلام ملكا لا ينبغي لأحد من بعده وحشرت له الجن والسباع والطيور
 وأرسل الله فى بنى اسرائيل الرسل وأوحى الى الأنبياء منهم وكان آخرهم
 زكريا ويحيى والمسيح عيسى ابن مريم عليهم صلوات الله وسلامه .

موجبات غضب الله على بنى اسرائيل :

الا أنه بدت من بنى اسرائيل صفات غضب الله عليهم بها . وقد فصل
 الله أسباب ذلك فى القرآن الكريم ، وجعلهم مثلا لنوع من الناس يظنون
 أنهم - وقد أنعم الله عليهم مرة - الشعب المفضل المختار مهما أتوا
 من الموبقات فيغترون بما أنعم الله عليهم به من الايثار والعلم ويركون الى
 ذلك فلا يصبرون على مكروه وينكثون العهد ارتكازا على ما آتاهم الله من
 فضله وتشيع فيهم الفاحشة والاثم ولا يتناهون عنه ، ويستغلون العلم
 ويكتمونه عن الناس ويبدلونه ويجادلون بالباطل ويستخدمونه فى غير موضعه
 وفى طاب الدنيا ويقتلون دعاة الخير . وفى ذلك ايشار للدنيا على الآخرة مما
 يجعل الله يصفهم بالكفر والاشراك والنفاق .

وهذا النوع من الناس من أخطر أعداء الله على أنفسهم وعلى المجتمع
 وهم فى كل مكان وزمان وضرب الله بنى اسرائيل مثلا عليهم . ومنهم علماء
 السوء الذين يلبسون الحق بالباطل ويضلون الناس باسم العلم .

ومنهم أناس كانوا من الصالحين فتح الله لهم وجهها من المعرفة
 فاستدرجوا بها وهم لا يشعرون . ومنهم ولد الرجل الصالح يركنون الى
 برته ويتهاونون ، ويركبون الرخص ولا يلتزمون حدود الله ويقولون
 سيغفر لنا . أو من يتجر بالدين ابتغاء النفوذ أو المال أو غير ذلك .

ومن المؤكده أن ذنب الجهال ، على قبحه أصغر من ذنب أهل الدين
الظاهرين بالعلم به . والحیطة داخل الدين وفى رحابه والحساب فيه أدق منه
خارجة وقيل حسنات الأبرار سيئات المقربين . فكيف حال من فتح الله عليه
بوجهات من القرب والعلم فأعرض عنها واشترى بها متاع الدنيا وغره دينه
وضل سعيه وهو يحسب أنه يحسن صنعا .

ولذلك فان قصص بنى اسرائيل فى القرآن ليس سردا تاريخيا أو نذيرا
لهم وقت نزوله ، ولكنه تحذير دائم لمن ينحرفون بالدين ، ويركبون متنه الى
سبل الدنيا غافلين عن غضب الله عليهم . وان اثم العالمين أفدح من اثم الضال
الجاهل .

الوجب الاول : دكونهم الى تفضيل الله لهم :

وقد فصل الله السبب الأول السابق ذكره من موجبات غضب الله على
بنى اسرائيل ، وهو ظنهم أنهم يظلون الشعب المختار المفضل مهما أتوا من
الآثام بقوله : « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم
يعذبكم بذنوبكم » . (سورة المائدة الآية ١٨) .

وقوله « وقالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودة قل اتخذتم عند الله عهدا
فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون » . (سورة البقرة
الآية ٨٠) .

وقال « فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا
الأدنى ويقولون سيغفر لنا » . (الأعراف الآية ١٦٩) .

ولا شك أن هذه العقيدة تورث العجب والكبرياء كما تورث الغرور
(أى الانسياق وراء الباطل) والعنصرية والتعصب للجنس واحتقار الغير
وكراهيته بلا سبب . كما تؤدي الى الجدل بالباطل والتشبث بالرأى بسبب
العجب .

وفى ذلك رد على اختيار الله وتفضيله لهم فى وقت ليس معناه أن يظنوا
المختارين ولو ساء حالهم . لأن الاختيار منوط بالتزام الأفضلية والمحافظة على
سببه . أما اذا انك عنها المختار لم بعد ثمة سبب لأن تظل له أفضلية .

أما اختيار الله لهم وهو أعلم بعيوبهم فسببه أفضليتهم وقت الاختيار
وانما كل ابن آدم خطاء سريع أن يرد الى الفساد . قال الله يرد على قولهم
نحن أبناء الله وأحباؤه « بل آتسم بشر ممن خلق » . (سورة المائدة الآية
السابقة) أى يصيبكم ما يصيب سائر الناس من الفساد عند العجب
والغرور .

الموجب الثانى : سوء استعمال العلم :

أفاض الله على بنى اسرائيل فيوض العلم فأساءوا استعماله ووجهوه
غير وجهته واغتروا به ووالاهم العجب ففسدت قلوبهم .

أما أن منهم علماء فقد شهد الله بذلك فى كثير من الآيات كقوله
« أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى اسرائيل » . (الشعراء الآية ١٩٧) .
ولكن منهم الأميون الذين لا يعلمون الكتاب الا أمانى . فليسوا سواء فى
العلم . كما أن جدلهم مع النبى صلى الله عليه وسلم — وان كان عن سوء
طوية — الا أنه يشهد بتجرهم .

ومن ورد ذكرهم ممن فتح الله عليهم فى العلم فأساءوا استعماله
السامرى وكان من أصحاب موسى عليه السلام فلما ذهب للقاء ربه فتن قومه
فأخرج لهم عجلا جسدا من الذهب له خوار وقال له موسى « فما خطبك
يا سامرى قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها
وكذلك سولت لى نفسى » (طه الآية ٩٥ وما بعدها) . فقد قيل فى ذلك ان
الله كاشفه واختصه برؤية جبريل عليه السلام . وكانت الروح والحياة تدب
اثر خطاه . فأبصر بذلك دون غيره فقبض قبضة من أثر أقدام جبريل عليه
السلام وخطها بالذهب فخار العجل وفتن به قومه .

ومن ذلك أيضا قارون وكان من قوم موسى وقال الله فيه « وآتيناه من
الكنوز ما ان مفاتحه لتتوء بالعصبة أولى القوة » قيل يعنى فتح الله عليه فى
علم الكنوز فلما أنبه الناس « قال انما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن
الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا » .
(القصص الآيات ٧٨ وما بعدها) .

وقيل منهم أيضا من ورد فيه « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين » قيل وهو عالم من علماء بنى إسرائيل اسمه بلعم بن باعوراء أوتى علم بعض كتب الله وقيل كان عنده اسم الله الأعظم وروى أن قومه طلبوا منه أن يدعو على موسى ومن معه فأبى ولم يزلوا به حتى فعل (١) . وقال فيه الله « ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » (الأعراف الآيات ٧٦ وما بعدها) .

ومن فساد بنى إسرائيل أن يكتموا العلم ويلبسوا الحق بالباطل وأن يجادلوا بغير الحق ويشتروا بالعلم وآيات الله ثمنًا قليلًا ولا يتعظون بها يظهره الله لهم من الآيات .

وقال الله فى كتمانهم العلم « وتكتُمون الحق وأتُم تعلمون » . (البقرة الآية ٤٢) .

ولقد بدل بنو إسرائيل الكثير مما أنزل اليهم من بعد ما كتموه وجعلوه سرا بينهم وقال الله تعالى فيهم « وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه » . (البقرة الآية ٧٥) وقال « يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله » . (البقرة الآية ٧٩) وقال « يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به » (سورة المائدة الآية ١٣) . وعن ابن مسعود رضى الله عنه قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية وتلا هذه الآية « فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم » . (البقرة الآية ٥٩) .

ودل على استغلالهم العلم وشرائهم به متاع الدنيا ما ذكرناه من قصة قارون وبلعم بن باعوراء والسامرى . فأولهم استغل علمه فى الثراء والأبهة وثانيهم فى نعيم الدنيا ورضا أهلها وثالثهم فى النفوذ والسطوة ومنه اتباعهم ما تتلو الشياطين واستعمالهم السحر وقال الله تعالى « نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم » . (البقرة الآية ١٠١) وقال الله

(١) شرح السفى الجزء الاول صفحة ٥٨٨ .

تعالى « ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا » وقال « بشما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا » (سورة البقرة الآيتين ٤١ و ٩٠) .

أما الانصراف عن الله من بعد ما يبين للعبد آياته فهو من أشد موجبات غضب الله وهو من قبيل الكفر والجحود . لأن آيات الله غالية وليس اظهارها الا غاية في التفضيل والتقدير . فاذا جحدنا من ظهرت له من بعد ما بينها الله كان ذلك اغماطا لها واحتقارا لشأنها وهو من أشد ما يؤاخذ عليه وبه يغلظ قلبه وقال الله تعالى « سل بنى اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فان الله شديد العقاب » (البقرة الآية ٢١١) .

موجبات أخرى : نقض العهد وانيان المعاصي والانحلال وعدم الصبر على المكارة :

لما هاجر موسى عليه السلام بقومه هربا من فرعون ونجاهم الله منه كان حقا عليهم أن يؤمنوا بموسى وهارون ورسالتهما ، ولكن لما واعد الله موسى لميقاته بالطور وترك قومه أربعين ليلة ، زين لهم السامري أن يعبدوا عجلا صنعه لهم من الذهب وجعله يخور كما قدما . ورجع موسى من الموعد ومعه الألواح فيها حكم الله وهو التوراة فلما وجدهم انصرفوا الى العجل غضب وألقى الألواح وغنهم وأخاه . قال الله تعالى « ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون . واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة « الزلزلة الشديدة » قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ ان هي الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة انا هدىنا (رجعنا وتبنا) اليك قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شئ فساكنبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى (محمد) الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم (التكاليف الصعبة التى فى التوراة) والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه

واتبعوا النور (أى القرآن) الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون » (الاعراف الآية ١٥٤ وما بعدها) .

وبعد هذا الميثاق عاد شعب بنى اسرائيل يستصعبون أحكام التوراة فأرسل الله جبريل فاقتلع الجبل ورفعاه كأنه ظلة وقال لهم موسى اقبلوا التوراة والا ألقى عليكم الجبل وفى ذلك يقول الله تعالى « واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور » (سورة البقرة الآية ٦٣) وقال كذلك « واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم » (الاعراف الآية ١٧١) .

ومنه أيضا « واذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتهم الا قليلا منكم وأنتم معرضون . واذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتهم وأنتم تشهدون ، ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان وان يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم اخراجهم أفنتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون . أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينعصون » (سورة البقرة الآيات ٨٣ وما بعدها) . وقد يكون اعراض بنى اسرائيل عن المواثيق وخلفهم لعهدهم سببه حب الحياة وإيثارها والجبن وعدم تحمل المشاق .

ومما يدل على ذلك قوله تعالى « واذ قلت لى موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها » (البقرة الآية ٦١) ومنها قصة طالوت التى جاء فيها قوله تعالى « فلما فصل طالوت بالجنود قال ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى الا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه الا قليلا منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » (البقرة الآية ٢٤٩) .

ويدل عليها عصيانهم لموسى وهم فى طريقهم الى الأرض المقدسة والتى قال الله فيها « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا

على أدباركم فتقلبوا خاسرين . قالوا يا موسى ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين قالوا يا موسى انا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا انا هنا قاعدون . قال رب انى لا أملك الا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين . (سماهم الفاسقين لخروجهم عن الطاعة) (سورة المائدة الآيات ٢١ وما بعدها) .

وقد وصفهم الله بحب الحياة فقال « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة » (البقرة الآية ٩٦) كما أنهم كانوا يحبون المال حبا جما ويشترى علماءهم — كما قدمنا — بآيات الله ثمنا قليلا . وكذلك كانوا يحبون اللهو والمتعة فقد جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « كانت بنو اسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم الى بعض وكان موسى يغتسل وحده فقالوا والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا الا أنه أدر » « رواه البخارى فى كتاب الغسل باب من اغتسل عريانا وحده فى الخلوة ومن تستر فالستر أفضل » وعن ابن مسعود قال ؟ كان الرجال والنساء من بنى اسرائيل يصلون جميعا فكانت المرأة تتشوف للرجل فألقى الله عليهن الحيض ومنعهن المساجد . وربما ألقى عليهن الاستحاضة أى دوام نزول الدم وعدم انقطاعه اذ أنه ورد فى الحيض قول النبى صلى الله عليه وسلم « هذا شئ كتب الله على بنات آدم » وجاء عن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة رضى الله عنها « لو أدرك النبى صلى الله عليه وسلم ما أحدث النساء لمنعهن من المساجد كما منعت نساء بنى اسرائيل » . قال يحيى بن سعيد لعمرة : أو منعن ؟ قالت نعم .

ثم انهم بعد ذلك كانوا لا يتناهون عن السوء وسبب ذلك هو انحلال عقدة المجتمع فيهم . اذ عدم التناهى اما أن ينشأ عن شيوع الفاحشة والاثم فلا ينهى غيره حتى لا ينهأ أو يعيره ، أو بسبب الكبرياء مخافة أن يصدده اذا نهأ . وقال الله تعالى « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان

داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » (المائدة الآية ٧٨ ، ٧٩) .
ولا شك أن ذلك من أسوأ مظاهر السقوط والانحلال فى المجتمع ولا يجد من بعده عاصما يعصمه من الانهيار والتداعى .

ولم يقتصر الأمر على الكف عن التناصح ، بل زاد الى كراهة دعاة الخير بل الى قتلهم وقتل الأنبياء . وهكذا استبد بهم حب الدنيا والمال والمتعة الى حد الاجرام وسفك الدماء بغير الحق . وقد وردت فى ذلك كثير من الآيات منها قوله تعالى « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون . » (البقرة الآية ٨٧) وقوله فيهم « ان الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم » (آل عمران الآية ٢١) وغير ذلك كثير .

ولعل آخر ما ارتكبه بنو اسرائيل فى ذلك قتلهم يحيى عليه السلام لما جاء مبشرا بعيسى ، فقد أزعجهم كثرة نذيره وتأنييه لهم على ترفهم وفسادهم وسوء حالهم فقتلوه . وكذلك فقد ائتسروا بالمسيح عيسى عليه السلام فرفعه الله اليه وقتلوا شبيهه وهم لا يعلمون .

وهكذا كان شأن بنى اسرائيل فى اتيانهم المعاصى وكراحتهم للنصح وسدورهم نحو الباطل يجادلون فيه ويقتلون الذين يأمرون بالخير ولا يتناهون بينهم عن الرذيلة . وايس من وصف لمجتمع بأقذع من ذلك الذى أورده القرآن فيهم .

النتيجة :

والنتيجة هى أن كثرة الآثام والمعاصى أغلظت قلوبهم وأظلمتها وجعلتها غلغا وقاسية واذا أظلمت القلوب وقست قويت فى النفس سورة الشر واعتادتها فلا تعود تتردد فى ارتكابه بل تعتاده ويسهل عليها ولا تؤاخذ نفسها عليه .

وقال الله تعالى فيهم « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وان منها لما يشقق فيخرج

منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون » (البقرة الآية ٧٤) وقال أيضا . فبما تقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا » (النساء الآية ١٥٥) وقال أيضا « فبما تقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم » (المائدة الآية ١٣) .

ومما نتج عن ذلك بسبب غضب الله عليهم وانصراف قلوبهم الى جهة المعاصي ان شق الله عليهم في التكليف . وقد تشددوا في البقرة فشدد الله عليهم (في سورة البقرة الآيات ٦٧ وما بعدها) وعصوا موسى عليه السلام في دخول الأرض المقدسة فنهاها في الأرض أربعين سنة .

وقال الله تعالى « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم » (النساء الآية ١٩٠) ثم ان الله قد حمل عليهم أمدا في التكليف لشدة نفوسهم وحاجتها الى التقويم . وان الاسلام جاء تخفيفا لهم ولم يؤمنوا به فأبوا واستكبروا . وقال الله تعالى « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التي كانت عليهم » (الاعراف الآية ١٥٧) .

ومما ابتلاهم الله به نتيجة لما سبق ، خصلة النفاق . فكانوا فيما بينهم يتناجون بالاثم والعدوان والمعصية ، ويظهرون أمام الناس الورع والتقوى والتدين ويعيبون عليهم تفریطهم . كما كانوا يتسلقون الظالمين ويخضعون لهم . وفي ذلك قال الله تعالى « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون » (البقرة الآية ١٤) وقال أيضا « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلا بعضهم الى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون ؟ » (البقرة الآية ٧٦) وقال فيهم « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ؟ » (البقرة الآية ٤٤) وقال الله « ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا . لبس ما قدمت لهم أنفسهم ان سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون . » (المائدة الآية ٨٠) .

الفصل الثاني

الظروف في المدينة قبل الهجرة

هجرة الانصار الى المدينة

الأوس والخزرج هما ولدا حارثة بن ثعلبة بن عمرو مزقياء - وسمى كذلك لأنه كان يمزق عنه كل يوم حلة حتى لا يلبسها أحد بعده - ابن عامر ابن حارثة بن امرئ القيس البطريق وقد سمي البطريق لأن رجيع بن سليمان ابن داود استعان به وبطرقه وكان أول من استعان به بنو اسرائيل من العرب بعد بلقيس وهو ابن ثعلبة بن مازن بن الازد بن الفوث بن ثبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان (١) .

(١) التكمال لابن الاثير - الجزء الأول صفحة ٤٠٠ وما بعدها . انظر كذلك سيرة ابن هشام المجلد الثاني صفحة ٣١ وما بعدها .
وقال ابن خلدون ان الخزرج خمسة بطون هم كعب وعمرو وعوف وجشم والحارث .
أما كعب فمعه بنو ساعده .
وأما عمرو فمعه بنو النجار احوال الرسول صلى الله عليه وسلم وهو قيم الله بن ثعلبة بن عمرو . وقد ولد له مالك وعدي ومازن ودينار . ومن مالك عمرو وغاثم ومبدول واسمه عامر بن مالك . ومن عمرو . عدى ومعاوية .
أما عوف بن الخزرج فمعه بنو سالم ومنهم بنو العجلان بن زيد بن عصم بن سالم . ومن عوف بن الخزرج أيضا القواقل وهما ثعلبة بن قوقل ومرضخة بن قوقل .
وأما جشم بن الخزرج . فمعه غضب وتزيد ومن غضب جاء عامر بن زريق بن عبيد حارثة بن مالك بن غضب وهو أبو بنى بياضة وبنى زريق ومن تزيد جاء على بن راشد بن شاردة بن تزيد وهو أبو بنى سلمة .
وأما الحارث بن الخزرج فمعه بنو خدرة بن عوف ؛ وبنو حرام بن عوف .
وأما الأوس فقد ولد له مالك بن الأوس وهو أبو أربعة بطون للأوس فكلهم اولاد مالك بن الأوس .
والبطون الاربعة هي عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس . والخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس وامرؤ القيس بن مالك بن الأوس .
أما عمرو بن عوف بن مالك فمعه خطمة بن جشم وثعلبة بن عمرو بن عوف ولوذان بن عمرو بن عوف ؛ وعوف بن عمرو بن عوف . ومن هذا الأخير حنشل ومالك وكلفة . ومن مالك معاوية وزيد ، ومن زيد عبيد وضبية وأميه ومن كلفة حجبيا (وقيل حجبى) .
وأما الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس فمعه الحارث وكعب ومن الحارث حارثة ومن جشم بنو عبد الأشهل . أما كعب بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس فمعه بنو ظفر .
ومن مرة بن مالك بن الأوس بنو أسيد (الجعادرة) وبنو عامر ومنهم بنو عطية وبنو أمية وبنو وائل وكلهم بنو زيد بن قيس بن عامر .
وأما امرؤ القيس بن مالك بن الأوس فمعه بنو أسلم وبنو واقف .

وهم فى الأصل قحطانيون من قبائل الأزد باليمن .

وكانت مساكن الازد بمأرب من اليمن الى أن أخبر الكهان عمرو بن عامر مزيقياء أن سيل العرم يخرب بلادهم ويغرق أكثر أهلها عقوبة لهم لتكذيبهم رسل الله تعالى اليهم . فلما علم عمرو بذلك باع ماله وسار عن مأرب هو ومن تبعه ثم تفرقوا فى البلاد فسكن كل بطن ناحية اختاروا . فسكنت خزاعة الحجاز وسكنت غسان الشام . ولما سار ثعلبة بن عمرو بن عامر فيمن ساروا اجتازوا المدينة . وكانت تسمى يثرب وهناك تخلف الأوس والخزرج ابنا الحارث واستقرا فيها .

غلبة اليهود على الأوس والخزرج :

وكان بنو إسرائيل قد سبقوهم اليها وكانت بها قرى وأسواق وحصون وكانت المدينة مقسمة الى أحياء مستقلة متباعدة كل منها عن الآخر وفى كل حى كان يقيم بطن من بطون اليهود أو الأوس أو الخزرج .

وفيه كانت الأراضى التى يزرعونها وديارهم ، ثم اطم « حصن » يسكن فيه رأسهم وسيدهم . وقيل الاطم من اطم يعنى علا وارتفع . وقالوا من كلمة عبرية معناها اغلق وسد . وفى الاطم كانت تخبزن المؤن وكان يأوى اليه أهل الحى عند الغارة . وكانت اطم اليهود فاخرة الرياش والأثاث بها دور العبادة . والمكتبات ومعاهد العلم ونحوها .

وقد كانت الغلبة فى المدينة لليهود وكان لهم الحكم والسيادة الى أن عدا مالك بن العجلان من الأوس على ملك اليهود الفطيون فقتله فكان ذلك سببا لظهور الأوس والخزرج (١) .

وتفصيل ذلك أن الفطيون كان ملكا من بنى إسرائيل وكان فاجرا فاسقا . فضرب على الناس الا تتزوج امرأة الا ويدخل بها قبل زوجها .

فلما عقد لأخت لمالك بن العجلان دخلت على الناس كاشفة ساقها فقيل لها فعلت سوءا فقاتلت ما يفعل بى الليلة أسوأ اذ كيف يدخل بى رجل

(١) التكمال فى التاريخ لابن الأثير - الجزء الأول صفحة ٤٠١ ومابعدها فى ذكر غلبة الأوس على المدينة وضعف أمر اليهود بها وقتل الفطيون .

غير زوجي . فآثار ذلك أخاها مالكا واتفقا على أن يتزيا بزي النساء حتى إذا انصرف السامر بقى هو مع العروس فاذا انفرد بها الفطيون قتله . فلما تم له ذلك هرب الى الشام الى ملك من ملوك بني غسان يقال له جبيلة فاستشار حميته فأقسم ألا يضع طيبا ولا يقرب النساء حتى ينتقم من بني اسرائيل . وسار جبيلة برجاله الى المدينة موريا بغيرها ، حتى اذا مر بها نزل وتحايل حتى اجتمع بكبراء اليهود ووجهائهم في مأدبة ثم أحاط بهم وقتلهم عن آخرهم وبذلك ظهرت الاوس والخزرج على بني اسرائيل .

ولقد كان من أسباب غلبة اليهود على الاوس والخزرج أنهم كانوا أهل علم وتقدم وكانوا يفخرون على الاوس والخزرج بدينهم وأنهم ذوو كتاب ودين من السماء ، ويعيرونهم بأنهم عباد أصنام . وكانوا على بينة من بعث النبي صلى الله عليه وسلم بما ورد في كتبهم ويهددون الاوس والخزرج به أنه اذا ظهر انتصروا به عليهم . وقد قال الله تعالى « الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل » (الاعراف الآية ١٥٧) وقال أيضا « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا » (البقرة الآية ٨٩) . أى يستنصرون على المشركين اذا حاربوهم فيقولون اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد نفعه في التوراة ويقولون لأعدائهم المشركين ؟ لقد أظلم زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وارم » (١) .

الحرب في المدينة

وقد ذكرنا في الجزء الأول والخزرج حروب متعددة في الجاهلية (٢) أولها حرب سمير . وكان سببها أن غطفانيا نزل المدينة بفارس وقال سأعطيه لأفضل أهل المدينة . فتناظر الناس في ذلك حتى وقعت الحرب بينهم . ثم وقع يوم السراة وحرب الحصين بن الأسلت وحرب ربيع الظفري وحرب فارع وحرب حاطب ويوم الربيع ويوم البقيع وحرب الفجار ويوم معبس ومضرس ويوم الفجار الثاني ويوم بعث .

(١) تفسير ابن كثير الجزء الأول صفحة ١٢٤ .

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزء الأول صفحة ٤٠١ الى ٤١٩ وما بعدها .

وبذلك تأصلت العداوة بين قبيلتي الاوس والخزرج بالمدينة من زمن طويل كما كانت بينهم وبين اليهود عداوة جعلت الحرب تنشب بينهم بين الفينة والأخرى فلا تكاد تهدأ حرب حتى تقوم أخرى فكانت الحرب قائمة فى المدينة على أى لون من الألوان .

وقيل ان اليهود لما رأوا ما يجره عليهم اتحاد الاوس والخزرج من ذهاب سيادتهم على المدينة عملوا على الدس بين القبيلتين ليشغلوها عنهم ويحولوا دون اتحادهم عليهم . فاستحكمت العداوة بين القبيلتين حتى كانت تقوم بينهما الحرب لأوهى الأسباب مما ضعضع قواهم وأذهب أموالهم وأفنى رجالهم وشغلهم عن اليهود وغيرهم .

كان اليهود يحالفون القبيلة المهزومة على المنتصرة حتى تضعف شوكتها وتمنع تسلطها فيحتفظون من دون القبيلتين بالسيادة وموارد المال والأعمال الهامة تاركين لهما أحقر الأعمال ولذلك كانت القبيلتان فى حاجة لليهود وتبع لهم . وذلك ملحوظ فى يوم الفجار الثانى ويوم بعث .

هذا مع أن اليهود لم يكونوا على وفاق فيما بينهم كما قال الله تعالى « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » فقالوا والذى نراه أنه حدث أنهم يتسافكون الدماء وكانت التوراة قد حرمت عليهم ذلك فأنزل الله فيهم « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالائتم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم » (البقرة الآية ١٥) .

وقد كان يوم بعث فى زمن بعث النبى صلى الله عليه وسلم وقد جاء الأنصار فى يوم العقبة الأولى للنبي صلى الله عليه وسلم وقالوا له لقد تركنا قومنا وما بين قوم شرا مما بينهم ، وذلك لشدة ما وقع بينهم من الخصام والقتل قال « ابن الأثير » (١) وكان بنو قريظة وبنو النضير « من يهود المدينة » قد حالفوا الأوس على الخزرج فى يوم الفجار . فلما هزمت الاوس جددت بنو قريظة وبنو النضير العهد مع الاوس على المؤازرة

(١) الجزء الاول صفحة ٤١٧ .

والتناصر واستحكم أمرهم وجددوا حربهم ودخل معهم قبائل من اليهود غير من ذكرنا . فلما سمعت الخزرج بذلك جمعت وحشدت وراست حلفاءها من أشجع وجهينة وراست الأوس حلفاءها من مزينة ومكثوا أربعين يوما يتجهزون للحرب والتقوا ببعاث وهي من أعمال قريظة وعلى الأوس حضير الكتائب بن سمالك والد اسيد بن حضير وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي وتخلف عبدالله بن أبي بن سلول فيمن تخلف عن الخزرج وتخلف بنو حارثة بن الحارث عن الأوس .

فلما التقوا دار بينهم قتال شديد وصبروا جميعا ثم ان الأوس هزموا من السلاح فولوا نحو العريض .

فلما رأى حضير هزيمتهم برك وطمع قدمه بسن رمحه وصاح واعقراه كعقر الجمل والله لا أعود حتى أقتل . فان شئتم يا معشر الأوس أن تسلموني فاقعلوا ففعلوا ففعلوا عليه وقاتل عنه غلامان من بنى الأشهل يقال لهما محمود ويزيد ابنا خليفة حتى قتل . وقتل عمرو بن النعمان البياضي رئيس الخزرج بسهم لم يعرف راميهِ .

فبينما كان عبد الله بن أبي سلول يتردد راكبا قريبا من بعاث يتحسس الأخبار اذ طلع عليه بعمر بن النعمان قتيلا في عجاءة تحمله أربعة رجال فلما رآه قال ذق وبال البغي وانهمزت الخزرج ووضعت فيهم الأوس السلاح فصاح صائح يا معشر الأوس احسنوا ولا تهلكوا اخوانكم فجوارهم خير من جوار الثعلب « يعنى اليهود » فانتهوا عنهم ولم يسلبوهم وانما سلبهم قريظة والنضير وحملت الأوس حضيرا مجروحا فمات . وأحرقت الأوس دور الخزرج ونخلهم فأجار سعد بن معاذ الأشهلي أموال بنى سلمة ونخلهم ودورهم جزاء بما فعلوا له في الرعل ونجا يومئذ الزبير وابن اياس بن باطنا ثابت بن قيس الخزرجي أخذه تجز ناحيته وأطلقه وهي اليد التي ذكرها له ثابت في الاسلام يوم بنى قريظة .

وكان يوم بعاث آخر الحروب المشهورة بين الأوس والخزرج ثم جاء الاسلام واجتمعوا على نصره وكفى الله المؤمنين القتال .

فهكذا كانت الظروف قبل الهجرة .

فاليهود وإن كانوا أصحاب الثراء والعلو إلا أنهم كانوا يضطرون إلى الحرب مع الأوس والخزرج . ولذلك فهم من مقدم النبي على أحد الأمرين أما أن يكون لهم على هذين ظهيرا بحسبانهم جميعا أهل دين ، أو يكون للأوس والخزرج وفي ذلك خطر على نفوذهم وقضاء نهائي على كلمتهم وكيانهم .

وأما الأوس والخزرج فقد أنهكتهم الحروب وبرموا بها وعزموا على فض الخلاف بأية وسيلة وهموا بتملك عبد الله بن أبي بن سلول عليهما جميعا حتى يتوحدوا وينفض الخلاف . وإن كانوا بطبيعة الحال على حذر ولا يقبلونه إلا على مضمض لأنه لا مبدأ له كما تبيننا من موقعه في بعث . وكان له موقف في يوم الفجار الأول وكان قائدا فيه على الخزرج . وقد سمي يوم الفجار لما فيه من الغدر .

ولذلك كانوا في قرارة نفوسهم غير مقتنعين بملكه عليهم . فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم وجدوا فيه نشدتهم وغايتهم فكانت مبايعته كما سترى .

الفصل الثالث

الهجرة إلى المدينة وعهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يهود

هاجر النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة بتوفيق من الله . ولم يرتب احتمالات جمع الاوس على الخزرج والظهور بهما على اليهود وامكانيات انشاء دولة جديدة في ذلك المكان .

ومما يدل على ذلك أن البخارى روى عنه صلى الله عليه وسلم (رأيت في المنام انى أهاجر من مكة الى أرض بها نخل فذهب وهلى أنها اليمامة أو هجر فاذا هى المدينة يثرب) .

وكذلك فان النبي صلى الله عليه وسلم كان يعرض نفسه على القبائل فى المواسم وروى أنه استنصر غير الأوس والخزرج فأبوا . وروى الامام أحمد عن جابر بن عبد الله (مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين يتبع الناس فى منازلهم وفى عكاظ ومجنة فى المواسم من يأوينى من ينصرنى حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة) فلو كان له اتجاه خاص الى الأوس والخزرج لما عرض نفسه على سائر القبائل .

وأما الاوس والخزرج فقد كان لهما دافع من ايواء النبي صلى الله عليه وسلم كما قدمنا وقال الدكتور حسين هيكل ان القبائل تناهضت فى استقباله لاسباب سياسية واجتماعية ولذلك لم يكن مشركو المدينة ويهودها أقل من المسلمين فى اقبالهم على حسن استقباله (١) .

ومهما يكن فلا شك أن المدينة كانت تتوق الى القيادة الرشيدة الواعية فى وقت ضاق فيه الاوس والخزرج عن عجزهم عن سياسة أنفسهم وعن

(١) حياة محمد صفحة ٢١٥ .

قمع الحروب بينهما واستغلال اليهود لذلك . ولم يكن يرضى أحدهما أن تكون القيادة للآخر . فوجدا متنفسا أن تكون القيادة من غيرهما . هذا وقد عثروا في النبي صلى الله عليه وسلم على المبدأ الذي قصد إلى قلوبهم وشحن عزائمهم وقبلوا أن يجتمعوا عليه وقد كانوا يشعرون من قبل أن دين السماء هو المبدأ السليم الكفيل برقيهم ولكن اليهود كانوا يحتكرون العلم ولا يثبونه على الناس وكانوا يباهون به ويماريون الغير فظل الأوس والخزرج محجوبين عن الدخول في اليهودية يتوقون إلى الدين فلا يجدونه وآثر اليهود أن يجعلوا من دينهم أرستوقراطية يكونون فيه السادة وغيرهم الدهماء . وقال الله تعالى (قالوا ليس علينا في الاميين سبيل) (آل عمران الآية ٧٥) فسوا غيرهم اميين .

البيعة على الهجرة :

قال ابن اسحق (١) فلما أراد الله اظهار دينه واعزاز نبيه وانجاز مواعده له خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الانصار: فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم فبينما هو عند العقبة لقي رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرا قال وكان مما صنع الله بهم في الاسلام ان يهودا كانوا معهم في بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم وكانوا هم أهل شرك أصحاب أوثان وكانوا قد غزوه ببلادهم فكانوا اذا كان بينهم شيء قالوا (ان نبيا مبعوثا الآن قد أظلم زمانه تتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وارم) .

قال فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض يا قوم تعلمون والله انه النبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنكم اليه . فأجابوه فيما دعاهم اليه بأن صدقوه وقبلوا ما عرضه عليهم من الاسلام وقالوا انا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى ان يجعهم الله بك فستقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض

(١) سيرة ابن هشام المجلد الثاني صفحة ٣٧ .

عليهم الذي أجبناك اليه من هذا الدين فان يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ثم انصرفوا راجعين الى بلادهم قد آمنوا وصدقوا (١) .

وجاء في الصحيحين وغيرهما ان عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة الاولى الا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نقتل أولادنا ولا نأتى بهتان ففتره بين أيدينا وارجلنا ولا نعصيه فى معروف فان وفيتم فلكم الجنة وان غشيتم من ذلك شيئا فأخذتم بحلة فى الدنيا فهو كفارة له وان سترتم عليه الى يوم القيامة فأمركم الى الله ان شاء عذب وان شاء غفر (٢) .

قال ابن اسحق (٣) « فلما قدموا المدينة الى قومهم ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوههم الى الاسلام حتى فشى فيهم فلم تبق دار من دور الانصار الا وفيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وقد أسلم سعد بن معاذ وأسيد بن الحضير سييدا قومهما من بنى عبد الأشهل ودل خبر اسلامهما الى ماشرح الله به صدر الانصار للاسلام وسرعة دخوله الى قلوبهم بما نكتفى بذكر دلالاته . وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى وصف أهل المدينة من الاسلام « فيخرج الرجل فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب الى أهله فيسلمون باسلامه حتى لم تبق دار من دور الانصار الا وفيها رهط من المسلمين (٤) » .

وقال جابر فى حديثه ذاك « ثم ائتسروا جميعا فقلنا الى متى تترك رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف ويطرد فى جبال مكة ويخاف ؟ » .

فلما كان العام التالى خرج من الانصار الى الحج سبعون رجلا وواعدوا النبى صلى الله عليه وسلم أن يلقوه فى العقبة من أوسط أيام التشريق « أيام عيد الاضحى » واجتمعوا متفرقين يذهب اليها الرجل او الرجلين حتى توافوا عندها ليلا وجاءهم النبى صلى الله عليه وسلم ومعه عنه العباس بن عبد

(١) السيرة النبوية لابن كثير - الجزء الثانى ص ١٧٧ .

(٢) صحيح البخارى كتاب الايمان .

(٣) سيرة ابن هشام - المجلد الثانى ص ٣٩ .

(٤) سيرة ابن هشام - المجلد الثانى ص ٤٣ ومابعدها .

المطلب وهو يومئذ على دين قومه الا انه أحب ان يحضر أمر ابن أخيه يتوثق له وقال العباس «ان محمدا منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو في عزة من قومه ومنعة في بلده ، وانه أبى الا الانحياز اليكم والحق بكم فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه ومانعوه « يعنى يحفظ ويجعلونه منيعا » ممن خالفه فاتم وما تحملتم من ذلك وان كنتم ترون انكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج اليكم فمن الآن فدعوه فانه في عزة ومنعة من قومه وبلده « قال كعب بن مالك انه بعد ان تلا النبي صلى الله عليه وسلم القرآن ودعا الى الله ورغب في الاسلام « فأخذ البراء بن معرور بيده وقال نعم فوالذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه ذرارينا « نساءنا » فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب وورثناها كابرا عن كابر » فقال النبي صلى الله عليه وسلم اخرجوا الى منكم اثني عشر نقيبا يكونون على قومهم بما فيه « فاخرجوا منهم تسعة من الخزرج هم أسعد بن زرارة وسعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة وهو الذي نصب أميراً على الجيش في مؤتة واستشهد فيها « ورافع بن مالك بن العجلان . والبراء بن معرور وعبد الله بن عمرو بن حرام « وهو أبو الصحابي الجليل جابر بن عبد الله « وعبادة بن الصامت وسعد بن عباد بن دوليم ، والمنذر بن عمرو . ومن الأوس ثلاثة هم أسيد بن حضير والحارث بن مالك بن كعب ورفاعة بن عبد المنذر .

وروى الامام أحمد بن عبد الله ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يومها «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل والنفقة في العسر واليسر وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن تقولوا الحق لا تخافوا في الله لومة لائم وعلى أن تصبروني لتمنعوني اذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة » قال جابر فقمنا اليه فبايعناه . وقال ان أسعد بن زرارة قام وقال : « رويدا يا أهل يثرب فانا لم نضرب اليه أكباد الابل الا ونحن نعلم أنه رسول الله وان اخراجه اليوم مناواة للعرب كافة فاما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله واما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذوره فينبوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله : قالوا « أطعنا

يا أسعد فوالله لاندع هذه البيعة ولا نسلبها أبدا » وقال ابن كثير في هذا الحديث اسناده على شرط مسلم (١) .

وقال ابن اسحق ان العباس بن عباد أخا بنى سلم بن عوف قال يومها « يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبائعون هذا الرجل ؟ قالوا نعم قال انكم تبائعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس فان كنتم ترون أنكم اذا أنهكت أموالكم مصيبة واشرافكم قتلا أسلستموه فمن الآن فهو والله ان فعلتم خزي الدنيا والآخرة وان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه على نهكه الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة قالوا فانا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فمالنا يا رسول الله ان نحن وفينا ؟ قال الجنة قالوا ابسط يدك فبسط يده فبايعوه » .

دلالة البيعة :

ونرى أن النبي صلى الله عليه وسلم فى هذه البيعة كان يقيم أساس دولة الاسلام أول ما أنشئت ، فقد كانوا يتعاهدون على ميثاقها الأول اذ صار لها أرض وشعب وحكم ونظام .

ولقد كان المتبادر الى الذهن أن يعاهدهم على الايمان والاسلام جملة والقرآن وحكم الله نظاما ، ولكنه خصص العهد فى ميثاقه الأول فعاهدهم فى بيعة العقبة الأولى الا يشركوا بالله شيئا ولا يسرقوا ولا يزفوا ولا يقتلوا أولادهم ولا يأتوا بيهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ولا يعصوه فى معروف . وهى صيغة بيعة النساء كما وردت فى سورة المتحنة (الآية ١٢) ثم عاهدهم فى العقبة الثانية على ما قدمنا من السمع والطاعة فى النشاط والكسل والنفقة فى الصر واليسر وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

السيرة النبوية لابن كثير الجزء الثانى ص ١٩٥ وما بعدها وانظر كذلك سيرة ابن هشام المجلد الثانى ص ٢٨ وما بعدها .

وأن يقولوا في الله لا يخافون لومة لائم وإن بنصروه ويمنعوه مما يمنعون
منه أنفسهم وأزواجهم وأبنائهم .

ونقول ان العهد بلا شك في عموميه يشمل الاسلام كله والقرآن وحكم
الله اذ هي وحدة لا تفريط في بعضها ولكن كان رسول الله صلى الله عليه
وسلم يخصص أحيانا في البيعة أو في النصيحة بما يوافق الحال . ويكون
الزم من غيره وقت العهد أو النصح (١) .

واني أظن أن مواد هاتين البيعتين تستجمع العناصر الأولى لتكوين
المجتمع والتي بدونها لا مجتمع ولا نظام وانها تؤلف الخلية الاجتماعية على
وجهها الصحيح بأن تنشئ جماعة مطمئنة تقيم النظام في هذه الجماعة .

ففي البيعة الأولى كانت أولى العناصر ، الاجتماع على الله لا يشركون
به شيئاً لأن هذا هو اللون الأساسي لهذه الآية الجديدة وجماع مبادئها .
ومعه تتبع طاعة الله في كل ما أمر والالتواء عن كل ما نهى ثم ان المجتمع
لا يكون مجتمعاً الا اذا أمن الفرد فيه على ماله وعرضه ونفسه وسادت الثقة
بين أفرادها فاما عصمة المال فقد بايعهم عليها الا يسرفوا واما عصمة العرض
فقد شرط عليهم ألا يزناوا واما عصمة النفس فقد ضمنها بألا يقتلوا واما الثقة
فقد صانها بألا يأتوا ببهتان يفترونه . وبذلك يقوم مجتمع أساسه توحيد الله
وامان النفس فيما بينهم وثقتهم بعضهم ببعض . وهذه عناصر اجتماع الناس
فيما بينهم .

وأما البيعة الثانية فهي تقيم النظام في هذه الجماعة وتضع أسس العلاقة
بين الحاكم والمحكوم على أساس الولاء للحاكم ونصرته والالتفاف حول
مبدئه لا حول شخصه .

انظر في ذلك فتح الباري بشرح البخاري للإمام ابن حجر الجزء الأول ص ١٤٧ قال عن
القرطبي كانت مبايعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه بحسب ما يحتاج اليه من تجديد
عهد أو توكيد امر ولذلك اختلفت العاطف .

ويلاحظ في بيعة العقبة الثانية أنها حوت أسس التنظيم كأحدث ما حدده علماء الاجتماع فجعلت من النبي صلى الله عليه وسلم نواة الخلية التي يجتمع حولها الأعضاء بالسمع والطاعة والنشاط بالعمل والنفقة في كل الأحوال وإن جعلت من المبايعين أعضاء متماسكين برياطين أحدهما التناصح وقد قدمنا من قبل أنه لحمة المجتمع ووشيجة تماسكه والثاني هو اتباع الحق ذاته « أن تقولوا لله لا تخافون لومة لائم » وهو قيد على الحاكم والمحكوم . يبدو أنه فيما بينهم في تناصحهم وللحاكم ثم يؤدون للحاكم حقه من النصرة والمنعة .

وتعتبر هذه البيعة الثانية مرحلة أرقى وأسمى في تكوين المجتمع المقبل من مرحلة البيعة الأولى .

فبدون الأولى لا مجتمع على الإطلاق وبدون الثانية يكون مجتمع ولكن مع تفكك وضعف وفوضى .

وعلى ذلك فقد هيأت هاتان البيعتان لإنشاء الدولة الإسلامية الأولى فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم بعد من هاجر من المهاجرين — إلا من حبسه الظلم بمكة — كانت الظروف مهيأة للقائه .

إلا أنه لا يمكن القول بأن الدولة الإسلامية قد نشأت بهاتين البيعتين قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . إذ أن عناصر الدولة لم تكامل قبل هجرته عليه الصلاة والسلام إلى المدينة . فقد كان المؤمنون بالمدينة فئة من فئاتها لا تمارس السلطة ولا تظهر بها ولا يجمعها أمام يقود أمرها على الرغم من هجرة نفر من كبار الصحابة إلى المدينة قبل النبي صلى الله عليه وسلم كعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان إلا أنه لم يعيشا بامارة أو نيابة عنه ولم يقلدهما سلطانا من قبله فظلت الدولة تنتظر بنشوءها حتى شرفها بمقدمه الميمون صلى الله عليه وسلم .

عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهل المدينة ويهود

لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وأحسن أهلها استقباله ورحبوا بمقدمه الكريم اشترك في ذلك اليهود وغير المسلمين وقال المرحوم

محمد حسين هيكل باشا فى ذلك » وقد بادر اليهود بادىء الرأى الى حسن استقبال سيدنا محمد طمعا منهم أن فى مقدورهم استمالة اليهم وادخاله فى حلفهم والاستعانة به على تأليف جزيرة العرب حتى تقف فى وجه النصرانية التى أجلت اليهود وهم شعب الله المختار عن فلسطين أرض الميعاد ووطنهم القومى » « حياة محمد صفحة ٢١٨ » .

وحدثتنا الأخبار أن بعضهم استبطن له العداوة من أول يوم كحى ابن أخطب وأخيه أبى ياسر . ولكنهم اكنموا ذلك ولم يظهروه لأن مبرره لم يكن قد وجد بعد وللأسباب السابقة .

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فما كان ليتدر من هم أقرب للإيمان من عباد الأوثان ولذلك صام يومهم يوم عاشوراء عند مقدمه الى المدينة وقال البعض ونزلت آية « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب » (المائدة الآية ٥) فى هذه الفترة ولكن الظاهر أن هذه الآيات من المائدة نزلت فى آخر الأيام بعد أن وضعت الحرب أوزارها مع قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم » (المائدة الآية ٣) وهما من أواخر ما نزل من الدين . وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد أمر فيهم بالصفح والاحسان ليمسح بيده الكريمة جروح الأحقاد وأدرانها .

وعلى أبة حال فبمقدمه صلى الله عليه وسلم الى المدينة تقبل أهلها قيادته وتكاملت بذلك عناصر الدولة الناشئة واستوفت أركانها .

فقد صار لها اقليم لتحكم فيه وتمارس سيادتها .

وشعب يدين لها بالولاء والطاعة من المسلمين وغير المسلمين .

وحكم منظم ظاهر المعالم يخضع له الناس .

وقد كان من مظاهر وجهود هذه الدولة الجديدة أنها أرسلت السرايا والبعوث حولها كسرية حمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب غزوة الابواء والأبواط والعشيرة وبدر الأولى حتى كانت بدر الكبرى .

وفى الداخل كانوا يجتمعون حول النبى صلى الله عليه وسلم فى المسجد الذى بناه يشرع لهم فى أمور دينهم بما أنزل الله ويتشاورون بطريقة مباشرة فى أمورهم ويقضون فى شئونهم وينفذون بطريق مباشر أيضا .

وأهم ما دل على نشوء هذه السيادة وطاعة الناس لها أن النبى صلى الله عليه وسلم أصدر صحيفة فى صدر أيامه بالمدينة خاطب بها المسلمين واليهود وغيرهم من أهل المدينة .

ولا شك أن هذه الطريقة لم تكن مألوفة فى حكم جماعة متفرقة الأصل مشتتة العناصر كأهل المدينة .

اذ كان المقرر وقتها بسبب تفرق العرب وتشتتهم — ألا يلتزموا الا بالاتفاقات والعهود التى يرتضونها بإرادتهم ..

ولم يكن للنظم المشرعة سبيل فى اخضاع العرب وأهل الجزيرة المتفرقين وفى غير الجماعات التى تخضع لحاكم معين كاليمين وأطراف الشام وفى خارج القبيلة الواحدة التى تخضع لرئيس واحد لم تكن تجرى الأحكام بقوة السلطان وحده وإرادته المنفردة بل كانت الوسيلة الاتفاقية والمعاهدة هما الطريق الأول للالتزام . وحتى فى بعض الجماعات من أصل واحد كمكة التى كان يسكنها أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، كانت الأمور تقرر بين بطون قريش بالاتفاق والتعاهد . فكان سادة بنى عبد مناف وبنى عبد الدار وبنى مخزوم وبنى عدى وبنى زهرة وغيرهم من قريش يجتمعون فى دار الندوة ويتشاورون فى أمورهم ولا يكون شيئا بينهم الا بالاتفاق .

فمن اتفق عليه نفذ ومن لم يتفق عليه لا يلتزم .

وقد نشأ الرسول صلى الله عليه وسلم فى مكة واطلع على ذلك ولم يطلع على غيره فى نظم الناس . وكان أهل المدينة أكثر تشتتا من أهل مكة اذ بعضهم من بنى اسرائيل كما قدمنا والأوس والخزرج يجمعهم أصل أبعد من فهر وقد نهكتهم الحروب المتوالية بشكل لم يكن بين بطون قريش . وكانوا أكثر تنازعا على السيادة . وخاصة اليهود .

ولذلك كان المنتظر أن يعرض عليهم الاتفاق ويعمد الى جمع رؤوسهم لاتخاذ العهد بموافقتهم ولكن لم يثبت لنا أنه فعل ذلك بل أصدر صحيفة منه خاطب فيها المسلمين واليهود والمشركين على السواء وألزمهم كلمته كالتقانون يسرى عليهم . ولم يعترضوا على ذلك فكان ذلك — فيما أرى — من أهم دلائل نشأة دولة جديدة ذات سيادة على أهلها ونظام يفرض عليهم بقوة السلطان وحده ومن جانبه بعد أن نصبوه باستدعائه وترحيبهم به والقاء أمرهم اليه .

وقد رأى أستاذنا المستشار على على منصور (١) أن هذا الكتاب هو معاهدة بين طرفين أحدهما هو أمة المسلمين من المهاجرين والأنصار والآخر هو أمة اليهود وأنه لما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة بدأ ينظم ما بين الأمة الاسلامية وبين غيرها من الأمم المجاورة فبدأ اليهود منعاً من الاحتكاك والمنازعات ، ونص فيها على التحكيم مقدماً بالنص على أنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فسادة فإن مرده الى الله والرسول وبين أن أحكامها تضمنت قسمين ، قسم ينظم صلات المسلمين ببعضهم ، وقسم ينظم صلاتهم باليهود . وحل ما تحويه في المجال الدولي خاصة — الى تسعة عناصر ذكرها (٢) .

وانما نرجح ، أن هذه الوثيقة ليست معاهدة خالصة لأن الظاهر لنا أنها ليست اتفاقاً كما بينا ، بل عملاً من جانب واحد يستند الى الولاية والسلطة على أهل الصحيفة من مسلمين ويهود ، كلاهما كخاضع ، وبخاصة أن من اليهود من كان يعيش داخل المدينة ذاتها كبنى قينقاع ويؤيد ذلك ما قرره سيادته من أنها تضمنت كذلك تنظيماً لعلاقة المسلمين ببعضهم (ص ٣٧٥) وتضمنت أسس القانون العام بشقيه الداخلى والخارجى

(١) كتابه في « الشريعة الاسلامية والقانون الدولى العام » صفحة ٢١٢ و ٣٧٥ وما بعدها .

(٢) هي النصر والمساواة لمن تبع العصابة من اليهود ؛ وان اعلان الحرب على أمة مسلمة اعلان لها على جميع الأمم الاسلامية « وان سلم المؤمنين واحدة » وأنه لا نصرة لمجرم أو جان ، وانها تتضمن النص على استقلال أمة اليهود عن أمة المسلمين والمخالفة العسكرية بينهم ، واحتفاظ كل منهم بدينه وماله ؛ ووجوب التشاور قبل الحرب ، بوان الحرب لا بد أن تكون مشروعة ، وان قريشا عدو للطرفين ، التزام كل من المسلمين واليهود أجابة ما يدعون اليه من صلح حفظاً للسلام .

بنصها على السياسة الداخلية والخارجية لدولة الاسلام (صفحة ٢١٢)
وانها جاءت ميثاقا جمع السياسة الداخلية والخارجية للاسلام أى قانونا
عاما بشقيه الداخلى والخارجى وضمنت للأقليات حقوقها (صفحة ٢١٥)
وانما تأتى النظر الى أنها معاهدة من أمة لم يعلم تاريخيا ما اذا كانت قد حدثت
باتفاق أو بعرض للولاية ومن أن الموادة فى الاسلام تترتب على الصلح فى
الأصل وهو من أنواع المعاهدات .

أما الخاضعون لهذه الدولة الاسلامية فهم بصفة عامة جميع سكان
المدينة من مسلمين وغيرهم .

وكما سنرى فان أهل الكتاب بالمدينة لايعتبرون فى تلك الفترة من
الذميين بالمعنى الذى أطلق بعد لأن الذمى يدفع الجزية بعد أن يقهر حربا
ويصفى نزاعه مع الاسلام بالسيف فيتشرب احترام الاسلام . ولذلك فالذمة
عقد لازم للمسلمين لايجوز لهم نقضه بأى حال من الأحوال وانما يجوز
للذميين وحدهم أن ينقضوه ولم يكن وجود أهل الكتاب والمشركون فى
هذه الفترة فى المدينة نتيجة حرب ولم يكونوا قد ذاقوا شوكة المسلمين بعد
ولم تتهدب نفوسهم على احترام الاسلام ولذا لم يكن تمردهم وفسوقهم
على الاسلام أمرا مستبعدا بل كان محتملا . كما أنهم لم يكونوا يدفعون
الجزية ولم تكن آية الجزية قد نزلت بعد . ولذلك فان العلاقة التى تربط
غير المسلمين بالمدينة بالمسلمين لاتعتبر علاقة ذمة بالنسبة لأهل الكتاب بل
هى — فيما نرى — علاقة موادة وهى علاقة غير لازمة للمسلمين يجوز
نقضها لدى استشعارهم الخيانة منهم كما سنرى وان كانت تفيد الأمان فى
موضوعها فلا تختلف فيه عن علاقة الذمة غير أنه لا يؤدى جزيته .

وهذا العهد الذى عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم هو فيما نرى
بالنسبة لغير المسلمين يفيد الموادة على النحو الذى بيناه .

وقد لاحظ مؤرخون من الغرب واليهود (١) أن هذه المعاهدة لم
تشمل أهم بطون اليهود وهم بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع وأنها
نصت على بطون من دونهم أقل أهمية .

(١) الموسوعة الاسلامية السابق ذكرها . وكتاب ولغستون المذكور اصفحة ٤٩ وما بعدها

ورد بعضهم ذلك الى أن هذه المعاهدة كانت تشمل البطون الكبيرة في أصلها ولكنها حرفت بعد ذلك وحذفت منها تلك البطون . وشكك البعض الآخر في أصلها كلية .

والذى نراه أن هذه المعاهدة أطلقت في عبارتها فشملت اليهود جميعا فيما أرادت أن تصرفه اليهم وهو اشتراكهم فى النفقة فى الحرب ومن عدم اجازة قريش ولا نصرها وما صرفته بعموم لفظها الى « أهل هذه الصحيفة » من الرجوع الى الله ورسوله فيما اشتجر من فساد ولم تكن المائدة قد نزلت بعد بما فيه من تحكيم التوراة فى شئون اليهود اذا لم يتداعوا لنا ومن عدم اجازة قريش ولا نصرها . أما البطون التى خصصها فليسوا من بنى اسرائيل بل من الخزرج والأوس المتبردين وذلك تكميلا لهدفه الأول وهو توحيد هاتين القبيلتين وازالة ما بينهما من الحزازات .

وقال المرحوم حسين هيكى « حياة محمد » ولئن لم يشترك فى توقيع هذه الوثيقة من اليهود بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع الا أنهم مالبثوا أن وقعوا بينهم وبين النبى صحائف مثلها ، ولم أقع على أن هذه الصحيفة قد وقعت ذلك والله أعلم وألاحظ أن عبارة « توقيع هذه الوثيقة قد لا تكون على تمام الدقة لأن الثابت أنه صلى الله عليه وسلم كتب لهم كتابا ولم يثبت لنا قبول أحد لها بتوقيعه . كما قدما

أما دعوى التحريف (١) فانها مستبعدة بعد أن أثبت ابن اسحاق هذه الصحيفة (بين ٨٥ ، ١٥٠ هجرية) فهى غير محتملة فى الاسلام لأن العلم كان ينشر على الناس كافة ولا يكتم فمئذ أن كتب ابن اسحق كتابه ونشره على الناس وحدث به الجموع فى حلقاته الزاخرة لا يقوم احتمال التحريف . وانما المرد عندنا فى تقدير الحديث ووزنه بأسانيده ومصادره . ولا يكون الطعن عليه الا من هذه الناحية . وابن اسحق على ما قلناه أقل أحاديثه حسن وهو ثقة غير مجرح وليس بحجة فى الضبط والله أعلم (٢) . ولكن رأيت أن

(١) قد تكون هذه الدعوى مفروضة القصد منها الشكك فى الوثائق الاسلامية وانها تعرضت للتحريف . وقد قال بها مؤرخون من اليهود .

(٢) انظر تذكرة الحفاظ للذهبي الجزء الاول صفحة ١٥٥ وقد اختلف فى وزنه وحديثه حسن كما قدما .

المؤرخين العرب اعتمدوا هذه المعاهدة ولم يجرحوا أو يشككوا في أصلها كما أنه في الحوادث التالية لم يعترض اليهود على سابقة الاتفاق بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم بل كانت تصرفات الطرفين تدل على وجوده .

ولقد كان هذا العهد فاتحة الوحدة بين أهل المدينة من بعد ما فرقتها العداوات والحروب وحتى يعذر صلى الله عليه وسلم فيمن يخالف من بعده لأن المؤاخذة لا تكون إلا بعد التكليف وقال الله تعالى « وما كنا معذيين حتى نبعث رسولا » أى بالتبليغ والتكليف وقيل قد أعذر من أنذر .

أما نظام الحكم الذى تأسست به هذه الدولة فقد نص عليها هذا العهد أيضا فان أول ما عنى به العهد تصفية آثار انزاع الماضى وتوحيد أهل المدينة وقرار الناس على ما كانوا عليه قبل مقدمه الكريم . فنص على أن كل جماعة تكون على حالتهم التى أتى الاسلام وهم عليها ، وإن عليهم دفع الديات وفداء الأسرى .

ونص العهد على وحدة أهل الايمان من أنصار ومهاجرين وتعاونهم فى الوقوف فى وجه الظالم أيا كان ، وانهم وحدة فى عهدهم وسلمهم وحربهم وإن من ظلم فأنما ظلمه على نفسه . ويتحمل شخصا نتائج ذنبه ولا يتحملة معه سواه .

وأكد العهد أن المرجع فى شئونهم الى حكم الله تعالى .

ثم عرض العهد لليهود وبين أن تبع المؤمنين يكون له وأن يناصره المؤمنون مالم يكن ظلما وأن لهم دينهم وللمسلمين دينهم وأن يهود كل قبيلة من قبائل الأوس والخزرج . أى من تهود منهم وليس أصلا من بنى « اسرائيل » يعتبرون جزءا من الأمة المؤمنة .

ثم عرض العهد لما ينتظر من حرب مع قريش فنص على اشتراك اليهود والمؤمنين فى نفقاتها وفى التحالف فيها وعدم جواز التحالف مع قريش واجارتها . ونص العهد على تحريم المدينة « يثرب » فلا تجوز الحرب فيها وإن من خرج منها أو قعد فيها آمن .

وهذا العهد يتضمن الأسس الأولى للحكم الاسلامى التى نجلها فيما
يلى (١) :

١ — المشروعية الثابتة الدائمة وهى أهم أسس الحكم الاسلامى وأهم
عناصره .

وقد وضعت الأمم الحديثة قواعد أعلى من دساتيرها وقوانينها ضمانا
لهذه المشروعية الثابتة لكونها أهم ركائز السلام والاطمئنان والاستقرار
الجماعى .

٢ — التكافل الاجتماعى وهو أساس النظام القانونى الاسلامى وهو
مستفاد من قوله تعالى « والمؤمنون بعضهم أولياء بعض » وما جاء فى هذا
العهد . وفى كفالتهم يكفلون أيضا مصالح غير المسلمين ممن يقيمون بينهم .
وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار فاختر لكل
مهاجر من المهاجرين أخا من الأنصار كان يبذل له من ماله ومن محبته .

٣ — الحرية فى حدود الشريعة الاسلامية وهى تختلف فى مفهومها عن
الحرية فى القانون الحديث .. كذلك تضمن هذا العهد الملامح الأولى
للعلاقات الخارجية فى دول الاسلام ، فنص على تأمين أهل الذمة المقيمين
فى دار الاسلام وعلى حرب المشركين ممن يعادون المسلمين . وعلى تحريم
المدينة وأمنها .

ولقد رأى البعض أن عهد النبى صلى الله عليه وسلم كان عن رغبة فى
التقرب لليهود نظرا لمكاثمتهم الرفيعة وانه قصد القضاء على سياسة الأحياء
والآطام وقد بلور اسرائيل ولفستون هذا رأى بقوله :

« كان يهود يثرب يتشوفون لرؤية الرجل الذى ينشر دعوة دينية تتفق
فى جوهرها مع عقائدهم ويعتقدون أن ظهور رجل ليس من بنى اسرائيل
يدعو الى التوحيد وتعاليم التوراة انما هو ظاهرة غريبة فى التاريخ البشرى .

(١) ورد فى السيرة النبوية لابن كثير الجزء الثانى ص ٣٢٠ وأورده كذلك ابن هشام فى السيرة
المجلد الثانى ص ١١٩ ، قال فى صحيح مسلم عن جابر ٠٠ وهو يعتبر من أهم وثائق القانون
العالم والدول الاسلامى =

« ولا شك أنهم سمعوا من مصعب بن عمير بعض آيات القرآن وكان لها وقع حسن في نفوسهم جعلهم يؤملون في هجرة النبي الى يثرب آمالاً كباراً » .

« ويظهر أنهم كانوا يعتقدون أو على الأقل يرجون أن يتمكنوا من التأثير فيه حتى يدخل دينهم حيث يتعاونون على محو عبادة الأصنام وقد يحتمل أنهم كانوا يرجون أيضاً أن يتمكن الرسول من التآليف بين البطون البشرية وجعلها كتلة واحدة تتعاون على النهوض بهذه المدينة التي كانت في حاجة شديدة الى الهدوء والسكينة وكانوا يعتقدون أنه لو تم ذلك لأصبحت يثرب أعظم مركز للتجارة في الجزيرة ولتمكن أهلها من أن يضربوا تجارة مكة وغيرها » .

« وكذلك كان الرسول يرغب في التقرب من بنى اسرائيل نظراً لمكانتهم الرفيعة من الوجهة الأدبية والمالية والسياسية في البلاد الحجازية ويعتقد أن اليهود يدخلون في ذمته بلا مقاومة بل ويرحبون بدعوته التي تشبه في جوهرها دعوة الآباء الأقدمين من بنى اسرائيل » .

ونلاحظ على ما قرره من أن اليهود كانوا يطمعون أن يتعاونوا على محو عبادة الأصنام أنه يجنح فيه الى أسلوب الالتواء الذي طالما تذرعت به الأمم المستعمرة في علاقاتها بالشعوب المغلوبة على أمرها فعبارتنا التعاون

= وقد جاء نص العهد بما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبي الامى بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس . المهاجرون من قريش على ربيعهم (حالتهم التي أنى الاسلام وهم عليها) يتعاقلون بينهم (أى يدفع كل منهم عن الآخر الدية) وهم يفسدون عانيهم (الأسير منهم) بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو عوف (من الأنصار) على ربيعهم يتعاقلون معاقلمهم (من العفل وهو الدية) وكل طائفة تقضى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو ساعدة (من الأنصار) على ربيعهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة تقضى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو الحرث (من الأنصار) على ربيعهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة تقضى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو عمرو بن عوف (من الأنصار أيضاً) على ربيعهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة تقضى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو النضير (من الأنصار) على ربيعهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة تقضى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو الأوس على ربيعهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة تقضى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وان المؤمنين لا يتركون مفرحاً (مثقلاً بالدين والانفاق) بينهم أن يغلوه بالمعروف في فداء او عقل =

على النهوض بهذه المدينة والتعاون على محو عبادة الأصنام ونحوها تذكراً كثيراً بصكوك الانتداب والوصاية ونحوها . وهى ذرائع واهية لأن اليهود لم يظهروا قبلها ولا بعدها أى غيرة على محو عبادة الأصنام بل على العكس كانوا يغلغلون أبواب التهود فى وجه الأوس والخزرج . كما لم يظهروا أى دافع نحو النهوض بهذه المدينة الا من حيث مصلحتهم الشخصية ونماء ثرواتهم أما من حيث مصلحة الأوس والخزرج فلا نزاع فى أنهم عمدوا الى الزامهم الحضيض ما أمكن واثارة الحروب بينهما حتى يأمنوا عدم تقدمهما فى الحياة .

وأما أنهم كانوا متشوفين لرؤية النبی صلى الله عليه وسلم أو أنهم كانوا يعتقدون عليه الآمال الكبار فالله أعلم به حيث لم تبد له أية بادرة مادية تثبتة وربما وجد ما يضجده ولكنها تصرفات فردية لا تقول انها تعبر عن اتجاههم .

وكذلك ليس ما يدل على أن الرسول رغب فى التقرب منهم بالذات لمكاتتهم الرفيعة . لو كان ذلك لقصدتهم وحدهم بالحسنى ولكنه فتح ذراعيه

= ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

وان المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى لسيسة من ظلم (عظيمة) أو اثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وان ايديهم عليه جميعا ولو كان ولد احدهم ؛ ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر ، ولا ينصر كافر على مؤمن .

وان ذمة الله واحدة يجبر عليهم ادناهم .

وان المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس .

وانه من قسنا من يهود فان له النصر والاسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم .

وان سلم المؤمنين واحدة ؛ لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله الا على سواء وعده بينهم .

وان كل غازية غزت يعتب بعضها بعضا .

وان المؤمنين يبي (يمنع ويكف) بعضهم بعضا بما ناله وما آذاهم فى سبيل الله ؛ وان المؤمنين المتقين على احسن حدى واقومه .

وانه لا يجبر مشرك مالا لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مقرر وان من اعتبط (قتل) مؤمناً عن يمينه فانه قود به الا ان يرضى ولى المقتول وان المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم الا قيام عليه .

وانه لا يحل لمؤمن اقر بما فى حقه النصيحة وآمن بالله واليوم الآخر ان ينصر محدثاً ولا يؤويه (أى عامل لضرر أو محائب العهد بأمر يستحدثه) وان من يضره أوامره فان عليه =

لمن يريد الله وقلبه لأهل المدينة كلها كافة من يهود وأوس وخزرج بلا
تفريق للحق وحده .

وانما اقتضى حسن السياسة أن يبدأ عهده بالملاينة والسلام مع الجميع
اذ ليس بينهم سابقة ما يوجب العداة أو غير الود والتراحم .

وكذلك فكما قدمنا يتعين في التشريع أن يسبق الاعذار التكليف
فيصدر المشرع أمره أولا ثم يحاسب الناس على مخالفته . لقوله تعالى
« وما كنا معذيين حتى نبعث رسولا » يعنى من الانذار والتكليف وقد أعذر
من أنذر .

= لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صواب ولا عدل (يعنى مقابل كدية أو غيره مما يعادل
خطيئته) وأنكم معها اختلفتم فيه من شيء مرده الى الله عز وجل والى محمد صلى الله عليه
وسلم .

• وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين •

وان يهود بنى عوف امة مع المؤمنين • لليهود وفيهم للمسلمين دينهم ومواليهم وانفسهم
الا من ظلم وانهم فانه لايرتفع (يهلك) الا نفسه وأهل بيته وأن ليهود
بنى النجار مثل مالىهود بنى عوف وان ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى
عوف وان ليهود بنى جشم مالىهود بنى عوف وان ليهود بنى الاوس مثل مالىهود
بنى عوف وان ليهود بنى ثعلبة مثل مالىهود بنى عوف الا من ظلم فانه لايرتفع الا نفسه وأهل
بيته . وان جفنة بطن من ثعلبة كانفسهم وان لبنى الشطيبة مثل مالىهود بنى عوف وان البر
دون (قبل) الاثم وان موالى ثعلبة كانفسهم وان بطانة يهود كانفسهم وانه لا يخرج منهم أحدا
الا باذن من محمد صلى الله عليه وسلم •

• وانه لاينحجز على ثار جرح •

• وانه من قتل قتل نفسه قتل وأهل بيته الا من ظلم •

• وان الله على ابر هذا •

• وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم •

• وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة (أى يتحالفون ضد من حاربه)

• وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون (قبل) الاثم •

• وانه لم ياتم امرؤ بحليته (لا يحتل ذنبه) •

• وان النصر للمظلوم (يعنى لايقوم لنصرته الا اذا كان مظلوما) •

• وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين •

• وان يشرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة •

• وان الجار كانفس غير مضار ولا آثم •

• وانه لايجاز حرمة الا باذن اهله •

• وانه ماكان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله
وجل والى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم =

فاذا جاء العهد وجعل اليهود على ربعتهم أى على حالهم قبل الهجرة للمدينة ونص على ما جاء فيه من التحالف والتكامل فان ذلك أمر طبيعي لا غرابة فيه بل كانت الغرابة فى غيره . ولا يحتمل هذا التأويل الذى استخرجه منه الدكتور ولفستون وشايعه فيه كثير من مؤرخى الغرب الذين يجعلون تطورات سياسة النبی صلى الله عليه وسلم عن باعث الظروف وعن قريحتة واجتهاده وليس عن وحى السماء وأمرها .

أما قوله انه قصد القضاء على سياسة الاحياء والآطام فى المدينة فنراه حسنا وتؤيده فيه .

= وان الله على اتقى ما فى هذه الصحيفة وابره .

وانه لا تجار قريش ولا من نصرها .

وان يبينهم (بين المذكورين فى هذا العهد) النصر على من دهم يثرب واذا دعوا لصالح يصلحونه ويلبسونه ، فانهم يصلحونه ويلبسونه وانهم اذا دعوا الى مثل ذلك فانه لهم على المؤمنين الا من حارب فى الدين ؛ على كل اناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم . وان يهود الاوس مراليهم وانفسهم على مثل ما لاهل هذه الصحيفة مع البر الحسن من اهل هذه الصفحة .

وان البر دون الاثم .

لايكسب كاسب الا على نفسه (يعنى لايسأل غيره عن عمله) وان الله على اصدق ما فى هذه الصحيفة وابره .

وانه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم .

وانه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة الا من ظلم وآثم .

وان الله جاور لمن بر واتقى ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الفصل الرابع حرب النفاق

«... وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ»

قرآن كريم

النفاق هو شر ما تقابل به المبادئ وأخطر ما يهدد استقرارها ورسوخها في النفوس . وحرب النفاق هي أدق الحروب وأحوجها الى التدبر وحسن السياسة والأناة في الوقت الذي تحتاج لسرعة الحسم والقمع . فهي تحتاج الى التروى من ناحية وللحزم والسرعة من ناحية أخرى وبين النقيضين يتبين ما يلاقيه المؤمنون من عناء هذه الحرب ودقة علاجها وخطرها على المبدأ .

وذلك بأن المنافقين يظهرون بمظهر الصداقة والغيرة على مبدأ ويلبسون الحق بالباطل ويتحاملون حتى تتجه الأمور وجهتها الصائبة وينفشون الذعر والدعوة الى الهزيمة في المناسبات ويرددون الاشاعات والأقاويل ويهولون في النتائج ويشبطون ويرجفون وينذرون بالشور ويشيعون القلق في النفوس فيستشرى خطرهم وتجذ أساليبهم ودعاويهم صداها في نفوس الضعاف ممن لم تملك المبادئ قلوبهم وحديثي العهد بها فينفضون عنها وينضمون الى المرجفين أو يتذبذبون بين هؤلاء وهؤلاء .

ولقد واجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عقب هجرته الى المدينة حرباً من النفاق من أعنف ما عرفه التاريخ من حروب النفاق بعد أن أنجاه الله من معركة الكفر في مكة . وكان قوادها سادة حروب التهويل والدعاية وقادتها في جميع العصور بنو اسرائيل .

وظاهرهم في ذلك لفيف من ذوى الأغراض ومن استحكم الاثم في قلوبهم من الأوس والخزرج . فكانوا عوناً على التآليب على الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ومحاولة احباط الاسلام والقضاء عليه وهدمه .

ولما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة لم يكن الاسلام قد رسخ في قلوب الانصار بطبيعة الحال ولم يكن قد تمكن من قلوب غالبيتهم

لأنهم كانوا حديثي عهد بالاسلام ولما يدخل الايمان فى قلوبهم . ولم يكونوا قد خالطوا النبی صلى الله عليه وسلم وخبروا دقائق تعاليمه بعد . ولذلك فقد عبد اليهود أول ما عمدوا الى الارجاف حول الاسلام بالتشكيك فيما جاء به لتفنيده وتكذيب النبی صلى الله عليه وسلم وتنفير القلوب بذلك وصرفها عن الايمان . وقاموا بذلك أحيانا متظاهرين بسداجة المتسائل البريء وأحيانا بتحدى اهل العلم منهم ودهاقينه . فجلسوا فى حلقات رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسجده يفاجئونه بين الفينة والأخرى بما يوقع الاضطراب فى النفوس ويزعزع عقيدتهم .

وذلك كسؤالهم : هذا الله خلق الناس فمن خلق الله ؟ وتارة أخرى توجه اليه أسئلة الاختبار كسؤالهم عن أهل الكهف والروح وذى القرنين وكثير من المسائل الدقيقة .

ولا شك أن المناقشات الجدلية هى أخطر ما تقابل به المبادئ لأن الحديد بالحديد يفل . وإذا دخلت قضية المبدأ فى المجادلة والمناقشة فإن ذلك قد يؤدى الى تمويته وصلته بالقلوب فيمس مواضع الداء من القلوب قبل شفائها ويغزوها الزيف قبل تمام التحصن .

وعلى الرغم من ان النبی صلى الله عليه وسلم قابل اليهود بما قدمنا من الحسنى ، وجاملهم واطهر احترامه لهم الا أنهم جابهوه بحرب شعواء من الاسئلة المغرضة التى قصدوا بها التشكيك فيه .

وكان اليهود يتعمدون السخرية من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكانوا يلوون ألسنتهم عند خطابه فيقولون له : « راعنا » وظاهرها نظرنا ومقصدهم يعنى يراعن وهو الاحق الأرعن . وكانوا يحيرونه بالدعاء عليه فقد ورد فى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها قالت دخل رهط من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا السام عليك ففهمتها « يعنى الموت عليك » فقلت عليكم السام واللعنة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لا يا عائشة فان الله يحب الرفق فى الأمر كله . فقلت يا رسول الله او لم تسمع ما قالوا ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقد قلت وعليكم . وورد عن

عبد الله بن عمر ما فى معناه بل تمادى اليهود فى عداوتهم بأساليب لا يقرها دين ولا شىء مقدور ، ورد عن عائشة رضى الله عنها قالت : « سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من زريق يقال له لييد الأعصم حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخيّل اليه أنه يفعل الشىء وما فعله حتى اذا كان ذات يوم أو ذات ليلة وهو عندى لكنه دعا ودعا ، ثم قال : يا عائشة أشعرت أن الله أفتانى فيما استفتيته :

أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى فقال أحدهما لصاحبه ما وجع الرجل ؟ فقال مطبوب . قال من طبه ؟ قال لييد بن الأعصم قال فى أى شىء ؟ قال فى مشط ومتسطة (ما يخرج من الشعر فى المشط) وحف طلع نخلة ذكر . قال وأين هو ؟ قال فى بئر ذروان . فأتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ناس من أصحابه فجاء . فقال يا عائشة كأن ماءها نعاعة الحناء أو كأن نخبها رؤوس الشياطين . فقلت يا رسول الله : افلا استخرجته (فاستخرجه . وفى رواية فلم يستخرجه) قال قد عافانى الله فكرهت أن أثور على الناس فيه شرا فأمر بها (البئر) فدفنت (١) .

وليس من السهل ان نهون من خطر هذه الحرب الباردة وخبيث القصد منها . فان النبى صلى الله عليه وسلم قضى ثلاث عشرة سنة فى مكة يعانى اضطهاد قريش وعنتهم حتى اضطر لى أن يعرض نفسه على القبائل وحتى اضطر الى ان يخرج من مكة وحيدا فريدا مطاردا بعد ان هاجر بعض صحبه الى الحبشة وبعضهم الى المدينة . فما يكاد يستقر له الأمر ويبتح الله له وجهه ويهوى الأرض الطيبة التى يبذر فيها بذور دعوته الصالحة حتى اقبل اليهود يعبثون فى زرعهم ويبدرون فيها بذور الفتنة والشيطان حتى يخرجهم أهل المدينة فيها ويعود مطاردا بعد ان فقد مقامه الأول بقريش .

ومثل هذه الحروب الشعواء سماها مؤرخو اليهود (اسئلة بريئة أو علمية بغرض البحث والاستقصاء) وان كانوا يعترفون بما فيها من التعنت

(١) احاديث واردة فى صحيح البخارى . كتاب الطب - ابواب الشرك والسحر من الموبقات وما بعدها .

ولقد قال ولفستون فى كتابه عن تاريخ اليهود (١) انه بعد ثمانية عشر شهرا من الهجرة تلبد الجوبين اليهود والنبي بسبب المشاحنات العلمية المتبادلة والاحتكاك بين المسلمين فى الشوارع . وأنه عند ذلك بدأ القرآن يذكر بما ارتكبه اجدادهم من الجرائم . ونجم عن ذلك أزمة سياسية جعلت تشتد يوما بعد يوم وشعر النبي انه لم يوفق الى النجاح فى تحقيق الفكرة التى كان يسعى اليها من تأليف قلوب اليهود والعرب وايجاد أمة مؤلفة من جميع العناصر . وانه بعد هذا الخصام ظهر فى القرآن ما يسمى بالنسخ ونزلت آية (ما تنسخ من آية أو تنسخها نأت بخير منها أو مثلها) . وحولت القبلة من بيت المقدس الى الكعبة .

وقرر أن بعض العناصر المعتدلة من اليهود كعبد الله بن سلام ومخيريق حاولت التوفيق بين الطرفين ولكن المناققين أمثال عبد الله بن أبى زادوا النار اشتعالا وجعلوا يوقعون بين اليهود والنبي صلى الله عليه وسلم . ونراه فى ذلك يدخل على الحقائق تحويرات تقلبها رأسا على عقب فقلوه : (محاورات علمية متبادلة بين الطرفين) يوحى بأن اليهود ليسوا وحدهم المسئولين عن هذه المحاورات وانما يسأل عنها المسلمون كذلك . وانها لم تنشأ بسوء نية من اليهود بل اعتبارا بين الطرفين . اما قوله انه بعد هذه المناقشات تبدل اتجاه القرآن وظهر فيه ما ذكره فهو ينبى عن انه يرى انه ليس من عند الله وانما يوجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يشاء . وهى تهم قاسية كنا لا نود أن يصدرها رجل عاش فى مصر طويلا وصحب فضلاءها . والواقع ان القرآن لم يكتر من التعرض لليهود من قبل فيما نعلم حتى يحتاج للتذرع بالنسخ ولم يسبق ان كال المديح لليهود أو ذكر حسنات آبائهم وانما نزلت سورة الأعراف وغيرها بمكة وفيها سيئاتهم . أما دعواه أن المناققين هم الذين ألبوا اليهود على المسلمين فهو انحراف ظاهر بالوقائع لأن المعلوم ان التهمة شائعة بينهما ورافقت تصرفات كل منهما ظرف الآخر وبخاصة لوجود مخالفات فى الجاهلية بين الأوس وبنى النضير وبنى قريظة وبين الخزرج وبنى قينقاع .

ويعود ولفستون (١) فيحور ظاهرة مؤكدة فى السيرة وهى تأثير نتائج الغزوات فى المنافقين فقد تأكد انه اذا انتصر المسلمون اغتم اليهود والمنافقون وركبهم الذعر ، واذا هزموا اغتتموا الفرصة للاحاطة بهم والاجهاز عليهم وأظهروا الفرح والشماتة .

فبعد انتصار المسلمين فى غزوة بدر اظهر المنافقون واليهود حقدا لا مثيل له وبعد أن كانوا يتكتمون حقدهم أبرزوه فجعلوا ينثرون الأشعار الوقحة بالغزل بنساء المسلمين والتحريض العلنى على المسلمين والتحرش بهم .

ويدل على ذلك انه ارسل النبى صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة على ناقته القصواء بعد النصر ليبشر الناس بما أنعم الله به على المسلمين فلم يصدق انيهود والمنافقون ذلك وقالوا انما محمد قد مات وهزم المسلمون والا فما بال زيد بن حارثة قد أتى على القصواء . وقال انها يهرقان بما لا يعقلان من هول الهزيمة . فلما تبين لهم ان ذلك كان حقا وانه قتل من اشراف قريش وصناديدها من قتل طار لبهم واستشاط غضبهم فاظهروا العداوة مما أدى الى اخراج بنى قينقاع من المدينة وقتل كعب بن الأشرف .

ولكن ولفستون يستطرد قائلا (٢) انه : كان الأمل أن يرجع الحالة بين اليهود والعرب على ما كانت عليه لولا انتصار العرب فى بدر فاصبحوا أصحاب الأمر والنهى وشرعوا يأخذون بالثار من الأفراد والجماعات وطعنت فى اعراضهم وكان النبى يأمل ان يدخل اليهود الاسلام بطريق المجادلة فلم ينجح فدخل معهم بعد بدر والظروف ملائمة فى حرب . لذلك ظهرت عند الانصار بعد موقعة بدر الكبرى سياسة جديدة جلية حيث صمموا على أحد أمرين أن يندمج اليهود مع العرب بواسطة اعتناق الاسلام أو يحاربوهم ويجلوهم وقد عرض ولفستون رأيه عن المهاجرين فقال : انهم كانوا تواقين الى هذه الحروب وينتظرونها بفروغ الصبر لأن حالتهم كانت سيئة جدا ، أى كانوا ينتظرونها كفرصة للسلب والنهب .

(١) كتابه تاريخ اليهود المراجع السابق صفحة ١٢٣ وما بعدها .
(٢) تاريخ اليهود فى الجاهلية وصدر الاسلام صفحة ١٢٧ .

وهذا الكلام ظاهر البطلان فلم يكن السبب فى سوء العلاقات هو فهو السيادة والاسلام بل مجاهرة اليهود بالعدوان . ولم يكن المسلمون هم الذين يطعنون فى أعراض اليهود بل كانت اليهود هى التى تطعن فى أعراضهم كما سرى فى قصة كعب بن الاشرف . ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى يسعى لاقتناع اليهود بالجدل بل كانوا هم الذين يثيرون الجدل وهو يتولى الرد عليه .

وعلى اية حال فانه بعد ما اظهره اليهود والمنافقون من الغل والمجاهرة بالعداوة بعد بدر ، والتى قال عنها : (ان تمسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها) « آل عمران الآية ١٢٠ » فانه لما انهزم المسلمون فى أحد اظهروا من الشماتة مالا مزيد عليه . وجعلوا يستهزئون بالمسلمين ويقولون : (لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا) « آل عمران الآية ١٥٦ » وأدى ذلك الى أن فقد المسلمون هيبتهم لا فى المدينة وحدها ولكن فيما جاورها فاعتدى عليهم العرب من بنى أسد وهذيل وبنى سليم وقتلوا من أرسلهم النبى صلى الله عليه وسلم لتعليمهم الدين فى يوم الرجيع ويوم بئر معونة . وتأمر يهود بنى النضير على قتل النبى صلى الله عليه وسلم بأن يلقوا عليه حجرا وهو جالس الى جدار ، فأمر باخراجهم وفى ذلك يقرر المرحوم محمد حسين هيكل باشا (١) انه كان لابد للمسلمين بعد أحد من أن يستردوا مكائبتهم . وأنه صلى الله عليه وسلم بعد أحد شعر بالخرج وحرص على أن يتقصى أخبار أهل المدينة و'عرب على ما يمكنه من استعادة مكانة المسلمين وسطوتهم وهيبة نفوسهم وانه بعد ما أصاب المسلمين بالرجيع وبئر معونة اشتد ساعد اليهود والمنافقين قال : (وفكر النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الحيلة تفكير السياسى الدقيق بعيد النظر فليس من شئ أشد على المسلمين يومئذ خطرا من أن يضعف نفوس مساكنهم بالمدينة هببتهم وليس ما يطمع قبائل العرب فيهم أكثر من ان تشعر بهذا الانقسام) وبين انه لذلك اضطر الى اجلاء بنى النضير عن المدينة لخطرهم عليه فى غائهم جوارها .

(١) حياة محمد سمعة ٢٩٣ ، ٢٩٥ و ٣٠٠ وما بعدها .

وعلى أية حال فإن اجلاء بنى قينقاع أدى الى انتهاء معركة الجدل العلمى وسكت اليهود عن اثاره المناقشات الجدلية التى كانوا يستهدفون بها تخلخل العقيدة الاسلامية فى قلوب الأنصار وافسادها .

كما أن اجلاء بنى النضير أوقع الرهبة فى قلوب المنافقين واتهمت بذلك معركة النفاق بعد أن أبعد محركوها من اليهود نهائيا من المدينة وتخومها وخاف منافقو الأوس والخزرج أن يظلوا من بعدها فى مناوراتهم ولم يعد يعرف عنهم الا التخلف عن الخزرج فى الغزوات ولم يبق أمام النبى صلى الله عليه وسلم الا أن يحسم بالسيف أمر اليهود الذين تظاهروا عليه مع أعدائه من قريش والأحزاب .

بعض ما نزل فى المنافقين : ولا ارتباط اليهود بالمنافقين وتظاهروا على الاثم والعدوان ولخطر المنافقين على الجاعات فى جميع الظروف ، رأيت أن أسترجع بعض ما قاله الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فىهم موعظة وذكرى . قال الله تعالى فيما أبداه المنافقون بعد بدر « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون . ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيط قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور . ان تمسكم حسنة تسوهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ان الله بما يعملون محيط » « آل عمران الآيات ١١٨ وما بعدها » .

وقال فيمن يقعد من المنافقين مع اليهود يستهزئون بالقرآن ويخوضون فيه .

« بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيتبعون عندهم العزة ؟ فان العزة لله جميعا وقد نزل عليكم فى الكتاب أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره انكم انذ مثلهم ان الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا . الذين يتربصون بكم فان كان لكم فتح من الله

قالوا ألم تكن معكم وان كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ؟ قاله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا . مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا . يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا ؟ ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا . الا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما « النساء الآيات ١٣٨ وما بعدها » .

وقال الله تعالى « المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون . وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم » « التوبة الآيات ٦٧ وما بعدها » .

وقال كذلك « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم وماؤاهم جهنم وبئس المصير . يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما قموا الا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فان يتوبوا يك خيرا لهم وان يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير » (التوبة الآيات ٧٣ وما بعدها) وقد نزلت في الجلاس بن سويد .

ومما نزل في منافقي الأعراب قوله تعالى « الأعراب » البدو « أشد كفرا ونفاقا » من أهل الحضرة « وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم . ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما » يعتبره خسارة « ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم ومن الأعراب من يؤمن بالله » « التوبة الآيات ٩٧ وما بعدها » « وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لاتعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون الى عذاب عظيم » .

وكذلك جاء ذكر المناققين في سورة المناققين وغيرها والله أعلم حيث كان ذلك .

حرب الجدل العلمي

ولتوضيح صورة حوادث النفاق في المدينة نسوق ماكان من حرب الجدل العلمي ، وقد بدأت هذه الحرب قبل الهجرة فقد روى أن اليهود بعثوا الى قرش أن اسألوه عن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح فان أجاب عن الكل أو سكت عن الكل فليس بنبي وان أجاب عن البعض وسكت عن البعض فهو نبي فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم في التوراة فقدموه مع سؤالهم (١) .

قال ابن اسحق (٢) فيما بلغه أنه في أحبار اليهود والمناققين من الأوس والخزرج نزل صدر من سورة البقرة الى المائة منها . وفي تفسيره لها أن قرا من أحبار يهود جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد أخبرنا عن أربع نسألك عنها فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم «عليكم بذلك عهد الله وميثاقه لئن أنا أخبرتكم بذلك لتصدقنني ؟ » قالوا نعم قال « فاسألوا عما بدا لكم » قالوا فأخبرنا كيف يشبه الولد أمه وانما النطفة من الرجل قال فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . أنشدكم بالله وبآيame عند بنى اسرائيل هل تعلمون أن نطفة الرجل بيضاء غليظة ونطفة المرأة صفراء رقيقة فأيتهما غلبت صاحبتهما كانت لها الشبه . قالوا اللهم نعم . قالوا فأخبرنا كيف نومك فقال أنشدكم بالله وبآياته عند بنى اسرائيل هل تعلمون ان نوم الذين تزعمون أنى لست به « أى النبي المنتظر » تنام عينه وقلبه يقظان فقالوا اللهم نعم . قال « فكذلك نومى تنام عيني وقلبي يقظان » قالوا فأخبرنا عما حرم اسرائيل على نفسه . قال أنشدكم الله وبآيame عند بنى اسرائيل هل تعلمون أنه كان أحب الطعام والشراب اليه ألبان الابل ولحومها وانه اشتكى شكوى فعافاه الله منها فحرم على نفسه أحب الطعام والشراب

(١) تفسير القرآن للنسفى على آية ويسألونك عن الروح - الجزء الثانى صفحة ٢٦٥

(٢) سيرة ابن هشام المجلد الثانى صفحة ١٥٢ وما بعده ٣

إليه شكرا لله فحرم على نفسه لحوم الابل وألبانها » قالوا اللهم نعم . قالوا
فأخبرنا عن الروح قال « أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل هل
تعلمون جبريل هو الذى يأتيني قالوا اللهم نعم ولكنه يا محمد لناعدو وهو
ملك انما يأتى بالشدة وبسفك الدماء لنا ولولا ذلك لاتبعناك . قال ما نزل
الله عز وجل فيهم « قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك بإذن الله
مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين » الى قوله تعالى « وما كفر
سليمان ولكن الشياطين كفروا » (سورة البقرة الآيات ٩٧ وما بعدها) .

وقال ابن اسحق وكان فيمن نزل فيهم القرآن خاصة من الأخبار وكفار
يهود الذين كانوا يسألونه ويتعنتون ليلبسوا الحق بالباطل .

فما ذكر لى عبد الله بن عباس لجابر بن عبد الله بن رثاب أن —
أبا ياسر بن أخطب مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتلو فاتحة
البقرة « أ لم ذلك الكتاب لاريب فيه » وقد أورد ابن اسحاق تفسيراً لها
فى مناقشاتهم .

وكان اليهود يبدلون كلام الله بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم
ويغيرون الحقائق وقد روى البخارى (١) عن عبد الله بن عمر أن اليهود جاءوا الى
رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له أن رجلاً وامرأة زنيا فقال لهم
رسول الله صلى الله عليه وسلم أما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم فقالوا
نفضحهم ويجلدون قال عبد الله بن سلام كذبتُم ان فيها الرجم ، فأتوا بالتوراة
فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها فقل له
عبد الله بن سلام : ارفع يدك فرفع يده فاذا فيها آية الرجم قالوا صدق
محمد فيها آية الرجم فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما . فرأيت
الرجل يحنى على المرأة ويقيها الحجارة (وفى رواية يحضأ عليها) وعن أبى
هريرة رضى الله عنه (٢) قال لما فتحت خيبر أهديت للنبي صلى الله عليه وسلم
شاة فيها سم فقال النبي صلى الله عليه وسلم أجمعوا الى من كان هربنا من

(١) انظر كذلك سيرة ابن هشام المجلد الثانى صفحة ١٩٣ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب الطب باب ما يذكر فى اسم النبي صلى الله عليه وسلم
(نسخة السندى جزء ٤ صفحة ٢٢) .

يهود فجمعوا له فقال انى سائلكم عن شىء فهل أنتم صادقى عنه ؟ قالوا نعم قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم من أبوكم ؟ قالوا فلان قال كذبتم بل أبوكم فلان قالوا صدقت . قال فهل أنتم صادقى عن شىء ان سألت عنه فقالوا نعم يا أبا القاسم وان كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته فى أيننا فقال لهم من أهل النار ؟ قالوا نكون فيها يسيرا ثم تخلفونا فيها فقال النبى صلى الله عليه وسلم اخسأوا فيها والله لانخلفكم فيها أبدا . ثم قال هل أنتم صادقى عن شىء ان سألتكم عنه فقالوا نعم يا أبا القاسم قل هل جعلتم فى هذه الشاة سما قالوا نعم قال ما حملكم على ذلك قالوا أردنا ان كنت كاذبا نستريح وان كنت نبيا لم يضرك .

وقال ابن اسحق ، وقال مالك بن الضيف أحد بنى اسرائيل حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر لهم ما أخذ عليهم له من الميثاق وماعهد الله اليهم فيه . والله ماعهد إلينا فى محمد عهد وما أخذ علينا من ميثاق فأنزل الله « أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون » (البقرة الآية ١٠١) وقال ابن صلوبا الفطيوئى لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا محمد ما جئنا بنىء نعرفه وما أنزل الله عليك من آية بينة فتتبعك لها فأنزل الله تعالى فى ذلك قوله « ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها الا الفاسقون » (البقرة الآية ٩٩) .

وقال رافع بن حريملة ووهب بن زيد وهو أحد اليهود أيضا لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا محمد ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه وفجر لنا أنهارا تتبعك ونصدقك فأنزل الله تعالى « أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل » (البقرة الآية ١٠٨) نقول وهذا غير ما نزل فى الأعراف والشعراء .

وقال المرحوم حسين هيكىل باشا (١) انه قدم فى هذه الأثناء وفد من الأنصار النصارى من نجران عدتهم ستون راكبا فناقشهم النبى صلى الله عليه وسلم حتى أفحمهم ودعاهم للملاعنة (آل عمران الآية ٦١) فأبوا وتنازعوا

(١) حياة محمد صفحة ٢٣٣ .

مع اليهود في أشياء وحكموا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن اسحق فقال رافع بن حريمة (من أجبار اليهود) ما أتم على شيء وكفر بعباسي وبالانجيل . فقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود ما أتم على شيء ومجد نبوة موسى وكفر بالتوراة فأنزله الله تعالى « وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب » (البقرة الآية ١١٣) .

وقال رافع بن حريمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا محمد ان كنت رسولا من الله كما تقول فقل لله يكلمنا حتى نسمع كلامه . فأنزله الله « وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية » (البقرة الآية ١١٨) (١) .

وقال عبد الله بن صوري الأعور الفطيني لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما الهدى الا ما نحن فيه فاتبعنا يا محمد تهتد وقالت النصارى مثل ذلك فأنزله الله « وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » (البقرة الآيات ١٣٥ وما بعدها) .

وذكر ما نزل من الآيات عند تحويل القبلة وقوله تعالى : (سيقول السفهاء) البقرة الآيات ١٤٢ وما بعدها .

ودخل النبي صلى الله عليه وسلم على بعض اليهود في بيت المدارس « بيت عبادتهم » فقال له بعضهم على أي دين أنت يا محمد قال على ملة ابراهيم ودينه قالوا ان ابراهيم كان يهوديا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « فهلهم الى التوراة فهي بيننا وبينكم » فأبوا ذلك وأنزل الله عليه « ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » (آل عمران الآية ٢٣) .

وغير ذلك مما روى عن فنحاص اليهودي وعبد الله بن حنيف وأبو نافع القرظي وغيرهم من أجبار اليهود . ممن أكثروا الجدل فنزل فيهم آيات البقرة وآل عمران والنساء والمائدة .

ولما خرج المسلمون الى غزوة مؤتة واستعمل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة قال « ان أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس

(١) أنظر في ذلك وفيما بعده من مناسبات النزول : سيرة ابن هشام المجلد الثاني صفحة ١٥٢ و ٢٠٧ وما بعدها وتفسير النسخي للآيات المذكورة .

فان أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس فان أصيب عبد الله بن رواحة فليؤمروا عليهم من شاءوا » قال اليهود ما هو بنى وما هذا شأن الأنبياء فى كلامهم . لأن الأنبياء كانت لا تقول ذلك الا اذا كان مستقتل من سمي لهم خلفاء . وكان ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتل زيد بن حارثة ثم جعفر بن أبى طالب ثم عبد الله بن رواحة فاخترت الناس خالد بن الوليد ونصر الله المسلمين على يديه .

اثارة الفتن بين المسلمين

ولما أعيت اليهود حرب الجدل العلمى ولم يخرجوا منها بطائل لان النبى صلى الله عليه وسلم كان يحاجهم بالتوراة ويظهر عليهم عمدوا الى محاولة الوقعة بين المسلمين .

من ذلك ما رواه ابن اسحق (١) من أن شاس بن قيس ، وكان شيخا قد عسا « استعصى » عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم مر على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج فى مجلس جمعهم يتحدثون فيه فغاضه مارأى من ألفتهم وجماعتهم وصالح ذات بينهم على الاسلام بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية فقال قد اجتمع ماؤ بنى قيلة (يعنى الجماعة من أولاد قيلة وهى أم الانصار التى ولدت الأوس والخزرج) بهذه البلاد لا والله مالنا معهم اذا اجتمع ملؤهم بها من قرار « فأمر فتى شابا من يهود كان معه فقال اعمد اليهم فاجلس معهم ثم اذكر يوم بعثت » (وهى المعركة التى كانت بين الأوس والخزرج قبيل الهجرة ومر ذكرها) قال ابن اسحق يوم اقتتل فى الأوس والخزرج وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج وكان على الأوس يومئذ حضير بن سمالك الاشهلأبو أسيد بن حضير وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضى فقتلا « يعنى حضير وعمرو » قال ابن اسحق ففعل (أى جاء الشاب اليهودى فأوقع بين الفريقين من الأنصار) فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواب رجلا من الحيين على الركب اوس بن قيظى أحد بنى حارثة بن الحرث من الأوس وجبار بن صخر أحد بنى سلمة

(١) سيرة ابن هشام المجلد الثانى صفحة ١٨٣

من الخزرج فتقاولا الرأي (تبادلوا الكلام في الفخر ونحوه) ثم قال أحدهما لصاحبه ان شئتم رددناها «أى الحرب» الآن جذعة (أى فى قوتها وشبابها) وغضب الفريقان جميعا وقالوا قد فعلنا (أى أجبناكم للحرب) موعدكم الظاهرة (مكان) السلاح السلاح فخرجوا اليها «الى الظاهرة» فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج اليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال «يا معشر المسلمين الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع عنكم أمر الجاهلية واستتقذكم به من الكفر وألف به بين قلوبكم» فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس فأنزل الله تعالى فى شاس بن قيس «قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون» (آل عمران الآية ٩٨ وما بعدها) قال وأنزل فى أوس بن قيطى وجبار بن صخر ومن كان معهما من قومهما «يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم . الى قوله . وأولئك لهم عذاب عظيم» (آل عمران الآيات ١٠٠ وما بعدها) .

نفر من أحبار اليهود أسلموا نفاقا

قال ابن اسحق (١) وكان مما تعوذ بالاسلام ودخل فيه مع المسلمين وأظهره وهو منافق من أحبار اليهود من بنى قينقاع أسعد بن حنيف وزيد ابن اللصيت ونعمان بن أوفى بن عمرو وعثمان بن أوفى .

قال وزيد بن اللصيت هو الذى قال حين ضلت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقتة فقال

(١) سيرة ابن هشام المجلد الثانى صفحة ١٤٩ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم والله ما أعلم الا ما علمني الله وقد دلني الله عليها فهي في هذا الشعب قد حبستها شجرة بزمامها « فذهب رجال من المسلمين فوجدوها حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وكما وصف .

قال ومنهم رافع بن حريملة وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مات « قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين » .

ورفاعه بن زيد بن الثابت وهو الذي قال فيه رسوله الله صلى الله عليه وسلم حين هبت الريح يوم موته « لاتخافوا فانما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار » فلما قدم للمدينة وجد أن رفاعه مات ذلك اليوم الذي هبت فيه الريح .

وقال منهم سلسلة بن برهام وكنانة بن سوريا .

وكان هؤلاء المنافقون يحضرون المسجد فيسمعون أحاديث المسلمين ويسخرون بدينهم . فاجتمع يوما في المسجد فقرأهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدثون بينهم خافضى أصواتهم قد لصق بعضهم ببعض فأمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخرجوا من المسجد اخراجا عنيفا .

خبر عبد الله بن أبي بن سلول

وكان ممن خالف اليهود في نفاقهم ونزلت الآيات في نفاقه وهو من بنى عوف من الخزرج ثم أحد بنى الجبلى وقال ابن اسحق (١) ولا يختلف عليه في شرفه من قومه اثنان . ولم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين حتى جاء الاسلام .

وقد كان له شأن في الجاهلية فقد كان على الخزرج يوم الفجار الأول . كما جاء في يوم بعاث كما قدمنا أنه لم يشترك في المعركة ووقف ينتظر تبيجتها وتشفى في قائد الخزرج لما قتل في ذلك اليوم كما ذكرنا من قبل .

وكان له اطم « حصن » اسمه مزاحم .

(١) سيرة ابن هشام المجلد الثاني صفحة ٢١٦ وما بعدها .

ونظرا لما له من السيادة وما اتصف به من التدبير وان كان عن خداع
ولم فقد اتفقت كلمة الأوس والخزرج على أن سولوه ملكا عليهما قبل
الهجرة .

ويبدو أن النفوس لم تكن في قرارتها مرتاحة لذلك الحل لما عرف عنه
من صفات لا يؤمن جانبه معها ولذلك فقد اتجهت النفوس وركضت مسرعة
الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وألقت اليه الزمام ، وضاعت الفرصة بذلك
على عبد الله بن أبي .

ولذلك كان من الطبيعي أن ينفس عبد الله على رسول الله صلى الله عليه
وسلم ولا يجد الايمان به الى نفسه سيلا .

ويبدو أن حلم الملك ظل يراود عبد الله طوال حياته وظل يبذر بذور
الشقاق والوقية على هذا الأمل .

ودخل عبد الله بن أبي الاسلام بعد أن رأى أكثر قومه يدخلون فيه
ولكنه مستبطن عداوة الاسلام واثارة الفتن .

ومن نفاقه أنه كان يقدم كل جمعة عقب الصلاة يدعو الناس أن يلتفوا
حول النبي صلى الله عليه وسلم ويحسب بذلك أنه يدارى نفاقه ويستتره .
ولا يعلم المنافق أن المبالغة في ذلك تزيد نفاقه ظهورا وتجعله كالعجوز المتصاية
التي تزيد قبحا في ثيابها المبهرجة وزينتها الفاقعة ونزواتها الماسخة . حتى منعه
الصحابة من كلمته .

ومن كراهته للنبي صلى الله عليه وسلم أنه روى أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم مر عليه وهو في ظل أطمه (حصنه) مزاحم وحوله رجال من قومه
فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم كره أن يجاوزه حتى ينزل عن دابته
فنزل وجلس قليلا فتلا القرآن ودعا الى الله عز وجل وذكره وحذر وبشر
وأنذر وعبد الله بن أبي ساكت لا يتكلم حتى فرغ النبي صلى الله عليه وسلم
من مقالته فقال « يا هذا انه لا أحسن من حديثك هذا ان كان محقا فاجلس
في بيتك فمن جاءك فحدثه اياه ومن لم يأتك فلا تفتنه به ولا تأت به في
مجلسه بما يكره منه » فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان متوجها

الى سعد بن عبادۃ يعودہ فی مرضہ ، فدخل علی سعد وفي وجهه ما قال عبد اللہ ابن ابی قحطال سعد یارسول اللہ انی لأری فی وجهک شیئاً لکأنک سمعت شیئاً تکرهہ فقال (أجل) ثم أخبره بما قال ابن ابی قحطال سعد « یارسول اللہ أرفق بہ فواللہ لقد جاءنا اللہ بک واتنا لننظم له الخرز لتوجه ، وانه یری أن قد سلبته ملکاً » .

وعبد اللہ بن ابی کان حلیفاً لبنی قینقاع — یهود بالمدينة — كما کانت الأوس حلیفة لبنی قریظة وبنی النضیر كما قدما فلما کان یوم اخراج بنی قینقاع من المدينة تشفع فیهم عبد اللہ بن ابی بن سلولہ اذ أنه لما أمر النبی صلی اللہ علیہ وسلم بحصارهم واستسلموا له أشار المسلمون علی النبی صلی اللہ علیہ وسلم بقتلهم ولكن عبد اللہ بن ابی حلیفهم تقدم الی النبی یشفع فیهم ویقول أحسن الی موالی .

ولم یرد علیہ رسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم جواباً لشدة غضبه فعاد الی قوله وألح حتی قال له رسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم : « هم لك » وأمرهم النبی صلی اللہ علیہ وسلم أن یغادروا المدينة فی ثلاثة أيام ثم عاد ابن ابی یشفع فی بنی قینقاع ولكن أصحاب النبی صلی اللہ علیہ وسلم دفعوه عن بابه فدفعهم وتشاجر معهم فشج رأسه فلما بلغ الیهود ما کان من ابن ابی وما أصابه قالوا لا نقیم فی بلد تشج فیہ یا ابن ابی ولا نستطیع عنک دفاعاً .

وفي معركة أحد کان عبد اللہ بن ابی من الرأی الذی دعا الی أن یتقیم النبی صلی اللہ علیہ وسلم بالمدينة ولا یمخرج الی الأعداء وکان ذلك هو رأی النبی صلی اللہ علیہ وسلم نفسه . ولكن أغلب الأنصار ممن لم یحضروا بدرأ رأوا أن یمخرجوا الی العدو ودفعتهم الحمیة لذلك وقالوا للنبی صلی اللہ علیہ وسلم أخرج بنا الی عدونا انا نخشى أن یظنوا بنا جبنا عن لقاءهم فیکون هذا جرأة منهم علینا وقالوا متى نحاربهم وقد نخلوا شعبنا ووطنوا زرعنا فخرج رسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم کارها . وخرج معه ألف مقاتل وکان فیهم عبد اللہ بن ابی فی ثلاثمائة ومعه طائفة من حلفائه من غیر المسلمين فلما أصبح الصباح انسحب عبد اللہ بن ابی من الجیش برجاله عائدا الی المدينة فلحق بہ

عبيد الله بن حزام يرجعه فيما فعل فقل له عبد الله بن أبي لقد عصاني وأطاع الغلمان . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبة حلفاء عبد الله بن أبي وكان قد ابصر بها ووجدها كثيرة الضوضاء والجلبة لا يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك ما لم يسلموا .

ولما انهزم جيش المسلمين في أحد بالغ عبد الله بن أبي في اظهار فرحه وشماته وبالع في تأنيب ابنه عبد الله بن عبد الله - وكان من المؤمنين الخالصين - لما أصابه من الجروح في المعركة فكان عبد الله يجيب أباه بأن الله قد صنع برسوله وللمسلمين خيرا . وكان من هذه الشماته التي اظهرها عبد الله بن أبي أن حال المسلمون بينه وبين الكلمة التي اعتاد أن يقولها بعد صلاة الجمعة في التعاون والتكاتف مع النبي صلى الله عليه وسلم فأخذوا بأثوابه يجذبونه منها جذبا ويمنعونه من الكلام وهم يقولون له اجلس والله والله لست أهلا لذلك وقد صنعت ما صنعت فخرج عبد الله ابن أبي من المسجد مخذولا يقول لكأنما قلت هجرا مع أنى قمت أشد أزره . ولما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود من بنى النضير أن يخرجوا من المدينة بعد أن تقضوا العهد جعل عبد الله بن أبي يحرضهم على البقاء وقال لهم لا تخرجوا وأقيموا في دياركم وأموالكم فإن معي ألفين من قومي ومن العرب يدخلون معكم ويحاربون دونكم وزين ذلك لليهود فخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى حاربهم وحاصروهم وانتظر اليهود ما وعدهم به عبد الله بن أبي من النجدة ولكنه أخلف وعده ولم ينجزه لهم فاستسلموا بعد أن كبدهم وعده خسارة في الأموال والأرواح .

وفي ذلك نزل قوله تعالى : « ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لنن أخرجتكم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وان قوتلتهم لنصركم والله يشهد انهم لكاذبون لن أخرجوا لا يخرجون معهم ولنن قوتلوا لا ينصرونهم ولنن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون » الى أن قال « كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال انى برىء منك انى أخاف الله رب العالمين ، فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدن فيها وذلك جزاء الظالمين . » (الحشر الآيات ١١ وما بعدها) .

وحدث بعد غزوة بنى المصطلق أن ازدحم رجل من المهاجرين برجل من الأنصار على الماء . فصاح الأنصارى يا معشر الأنصار وصاح المهاجرى يا معشر المهاجرين فمشى الى المتشاجرين نفر من كلا الفريقين فقصوا ما بينهما . ووصل هذا الخبر الى عبد الله بن أبى فغضب وقال لقد كاثرتا هؤلاء المهاجرون فى بلادنا والله ما عدانا وإياهم الا كما قال الأول سمن كلبك يأكلك أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل وحرص المنافقين على الفتنة وعيرهم بقسمتهم أموالهم بينهم وبين المهاجرين .

ولما بلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم عمد الى التثبيت منه ، فلما تأكد غضب له وقال عمر بن الخطاب يا رسول الله مر به رجلا منا فيقتله فرفض النبى ذلك وقال كيف يا عمر لو تحدث الناس ان محمدا يقتل أصحابه . وأمر بالرحيل فعجب الناس من الرحيل فى ساعة الحر والقيظ وقال سعد بن عبادة أيا رسول الله لقد أمرت بالرحيل فى ساعة لم تكن لتأمرنا بالرحيل فيها فقال له : (مامعناه : أو لم يبلغك ما قاله صاحبكم ابن أبى زعم أنه ان رجع الى المدينة أخرج الأعز منها الأذل . وسار عبادة بن الصامت الى ابن أبى لكى يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويطلب أن يستغفر الله له فلوى عبد الله رأسه معرضا عنه فقال له عبادة : والله لينزلن فى لى رأسك قرآن يصلى به .

ثم أنكر عبد الله بن أبى ما نسب له وأقسم بالله انه ما قال ما نقل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ثم نزل القرآن مصدقا لما أنكره عبد الله ابن أبى « واذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرين . سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ان الله لا يهدى القوم الفاسقين . هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا والله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل والله العزة ولسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » .

(المنافقون الآيات ٥ وما بعدها) .

واتتظر الناس ما يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عبد الله بن أبى ولكنه لم يفعل معه شيئاً وكانوا يظنون أنه سيأمر بقتله . وسار عبد الله ابن عبد الله بن أبى الى النبى صلى الله عليه وسلم وقال له : « يا رسول الله انه بلغنى أنك تريد قتل أبى فان كنت فاعلا فمرنى به فانا احمل اليك رأسه فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى . وانى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أئظر الى قاتل أبى فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل بذلك النار . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم (مامعناه) بل تترفق به ويحسن صحبته ما بقى معنا .

ولما ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم للعمرة - عام صلح الحديبية بلغ قريش أن عبد الله بن أبى فى المسلمين فارسلت اليه قريش أن ان احببت أن تدخل فتطوف البيت فافعل فقال له ابنه يا ابت اذكرك الله الا تفضحنا فى كل موطن . تطوف ولم يطف رسول الله ؟ فرفض عبد الله بن أبى ما دعت اليه قريش وقال لا أطوف حتى يطوف رسول الله . وبلغ هذا الحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر به .

قليل ولما حضر الموت عبد الله بن أبى كثر القوم من بنى قينقاع والمنافقين حول سريره فاعضب ذلك ابنه وهم بأن يغلق الباب فى وجوههم فمنعه أبوه وقال له دعهم فان قريبهم منى يشفى صدرى العليل ويخفف من آلامى فقد شاركونى فيما نزل بى من النوائب .

ولما مات أرادوا ان يستخلصوه ويستأثروا بدفنه ولكن عبادة بن الصامت منعهم وقام المسلمون بالدفن وكفنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قميص له وحضر دفنه وظل واقفا الى أن وورى التراب .

وجاء أن عبد الله بن عبد الله بن أبى كان قد سأل النبى صلى الله عليه وسلم أن يكفن أباه فى قميصه ويصلى عليه فأجابه الى ذلك . فاعترض عمر رضى الله عنه فقال عليه السلام ذلك لا ينفعه وانى لأرجو أن يؤمن به ألف من قومه . فنزلت « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » . (التوبة الآية ٨٤) .

هذه هى طوفة سريعة بحرب النفاق كيف بدأت بالمدينة وكيف اشتدت عقب هجرته اليها صلى الله عليه وسلم فبدأت بسيل من الجدل والاعتراض باسم العلم والفهم ثم كيف قمع النبى صلى الله عليه وسلم معركة الجدل باخراجه بنى قينقاع وكيف استمرت معركة الجدل حتى قطعها ما وقع فى قلوب المنافقين من الرهبة باخراج بنى النضير من المدينة .

ذلك بان الله أمر النبى صلى الله عليه وسلم ان يأخذ المنافقين بالشدة والغلظة ووصفهم بأنهم كالمشركين والكفار وأنهم فى الدرك الأسفل من النار .

ولما تعذر على اليهود كسب المعركة بالتظاهر والكلام والنفاق دخلت المعركة سافرة الى ميدان السيف والقتال .

الفصل الخامس

الحزم والسيف

«وَمَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْذَرِهِمْ عَلَى سَوَاءٍ»
قرآن كريم

بعد أن بلغت حرب النفاق ما وصفنا من الخطورة على دولة الاسلام وتهديدها بالانقراض وانقلاب الأنصار عليها وهجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه معه الى المدينة لم يبق الا الحزم وحرب السيف .

وتتلخص أدوار هذه الحرب الجديدة في قتل بعض أعداء الدولة الاسلامية ككعب بن الأشرف ثم في اخراج بنى قينقاع من المدينة ثم اخراج بنى النضير مما حولها ثم القضاء على بنى قريظة ثم تعقب فلول بنى النضير واليهود في خيبر ثم اخراجهم نهائيا من الجزيرة العربية في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وبذلك شنت هذه الحرب على شخصيات يهودية بعينها وعلى البطون الكبرى وهى بنو قينقاع ثم بنو النضير ثم بنو قريظة ثم اليهود في خيبر من مختلف البطون .

وقد روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه (١) قال بينما نحن في المسجد اذ خرج النبى صلى الله عليه وسلم فقال انطلقوا الى يهود فخرجنا حتى جئنا بيت المدارس فقال أسلموا تسلموا واعلموا أن الأرض لله ورسوله

(١) انظر سيرة ابن هشام المجلد الثانى صفحة ١٧٩ .

وانى أريد أن أجليكم من هذه الأرض فمن يجد منكم بماله شيئا فليبعه والا فاعلموا أن الأرض لله ورسوله .

وجاء عن عمر رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها الا مسلما . رواه أحمد ومسلم والترمذى وصححه الشوكانى فى نيل الأوطار وعن عائشة رضى الله عنها قالت آخر ما عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال لا يترك بجزيرة العرب دينان رواه أحمد والشوكانى فى نيل الأوطار وعن أبى عبيدة بن الجراح قال آخر ما تكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم اخرجوا يهود أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب أو كما قال رواه أحمد والشوكانى وعن ابن عباس رضى الله عنه قال اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم وجهه يوم الخميس وأوصى عند عودته بثلاث أخرجوا المشركين من جزيرة العرب وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم وقد نسبت الثالثة . متفق عليه .

ولقد أكثر المؤرخون من فحص تصرفات النبی صلى الله عليه وسلم فى يهود ووصفوها بالشدة وقال بعضهم ان الاسلام يميل لسفك الدماء . وانما نحب قبل أن نعرض لهذه الوقائع أن نميل بالقرارىء الى بعض الفقه ميلا خفيفا ليدرك أساس عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع اليهود ليتفهم أصله .

فالمتمحصر لأحكام الاسلام فى تلك الفترة بجدها تصدر عن قانون الحرب (الجهاد) وان المدينة التى كانت تتضمن الدولة الاسلامية كانت فى الواقع كتلة محاربة قد أحيطت بالعداوة من كل جانب وتربص بها الأعداء من كل مكان . وكان أشد أعدائها خطرا هم صفوف الأعداء الداخلين المنبشين فى قلب المدينة من دعاة الفتنة وقلب الأمور ومروجى الهزيمة والمرجفين . ولسبب هذه الحالة الحربية التى كانت فى المدينة فى تلك الفترة فانه لا تطبق الأحكام الشرعية العادية (قانون السلام) بل تطبق الأحكام الاستثنائية المستقاة من قانون الحرب والمتفرعة عليها . وربما يمر الفقيه ببعض أحكام الاسلام التى يظنها من الأحكام العادية ولا يفتن الى أنها

متفرعة من أحكام الجهاد وقائمة عليها وذلك مثلا كأحكام البغاة وأحكام المرتد عن الاسلام (١)

وكذلك أحكام معاملة النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الفترة لليهود انما ينظر فيها على هذا الاعتبار وهي أنها أحكام مشتقة من أحكام الجهاد والسير (قانون الحرب) وان اعتبار أمن الدولة هو المسيطر عليها ولذلك فقد أعذر الله رسوله صلى الله عليه وسلم في أمرهم وانه ان لم يسكن ما كان منه معهم لما قامت دولة الاسلام ولتسكنوا منها بكيدهم .

ولو وصفت العلاقة بين أمة الاسلام وبين اليهود في هذه الفترة ، لتبين انها علاقة من نوع خاص غير العلاقات التي استقر عليها تنظيم الشريعة الاسلامية للعلاقات بين المسلمين وغيرهم (٢) .

فهم من ناحية لم يكونوا من أهل الذمة لأن الذمة تتأتى من الصغار والقهر والغلبة بالفتح أو النزول على حكم المسلمين فتفرض عليهم الجزية وشروط يحترمونها ، ولم يكن ذلك قد حدث بين المسلمين واليهود عند دخول النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة ولم تكن آية الجزية (سورة التوبة الآية ٢٩) قد نزلت بعد .

(١) فالمرتد مثلا لا ينظر اليه على أنه أتى ذنبا يعاقب عليه ولكن ينظر اليه على أنه « حربي مقهور تحت أيدينا » وأن أمواله تعتبر من قبيل الفداء « الفدية بلا حرب » ولذلك فهو يسامل معاملة الجاسوس ولا يعتبر قتله حدا من الحدود « مقالة الأستاذ المرحوم الشيخ أحمد بك إبراهيم في الزواج مع اتحاد الدين واختلافه وتغييره - مجلة القانون والاقتصاد العدد الأول السنة الأولى » اذ يقول « أن المسألة ملحوظ فيها جانب الخروج على الجنسية الاسلامية أكثر مما هو ملحوظ فيها جانب تبديل العقيدة بدليل اعتباره حربيا على المسلمين » فالمرتد اذ يدل عقيدته صار خطرا على أمن الدولة وأمكن أن يكون حربيا عليها ولذلك فهو يستتاب أو يقتل في ثلاثة أيام . ومما يدل على ذلك أن بعض المذاهب تلحق أحكام المرتد بأبواب الجهاد والسير كما أن أحكامه لا يمكن تفسيرها في معظم المذاهب الا على أساس أنه حربي يقتل ، وليس جانبا يوقع عليه العقاب . وقد نص الحنفية صراحة على أن المرتد يقتل لانه حربي كافر بلغته الدعوة وأن المرأة لا تقتل لان النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن قتل المرأة (أى في الحرب والا فانها ترجع حدا) ولانه لا حراب على النساء لعدم صلاحية البنية لذلك فالمرتدة لا تقتل بل تجلس حتى تنوب ولو كان حدا لا انمى بالتوبة . ونصت بعض المذاهب على أن مال المرتد فيء (أى غنيمة باردة) قال الشافعي ذلك (الام الجزء الرابع صفحة ٢٩١) وهو أحد أقوال ثلاثة في المذهب . وقال المالكية أيضا (اقرب المسالك للامام الدردير الثمن صفحة ١٨٦ - مكتبة القاهرة) .

(٢) انظر في بيان هذه العلاقات : بدائع الصنائع للكاساني الجزء السابع صفحة ١٠٤ و ١٠٩ و ١١٠ وما بعدها . المذهب للشيرازي (شافعي) الجزء الثاني صفحة ٢٥٠ وما بعدها . شرح الخرشى (مالكي) الجزء الثالث صفحة ١٤٣ وما بعدها والمغنى لابن قدامة (حنبلي) الجزء العاشر صفحة ٥١٧ وما بعدها ٥٦٧ وما بعدها .

ومن ناحية أخرى هم ليسوا حلفاء للمسلمين لأنهم خاضعون فعلا لأحكام الدولة الإسلامية ويعيشون في داخلها كأفراد من رعاياها تنطبق عليهم أحكامها .

والذى نطّنه أن العلاقة بين المسلمين واليهود في هذه الفترة ، كانت أقرب ما تكون الى الموادة فهم قوم من غير المسلمين يعيشون في كنف المسلمين وخلالهم على وجه الموادة والمسالمة ، فكانوا في حالة مؤقتة لم تكن قد تكشفت بعد ولم تكن قد نزلت فيها أحكام الشرع على وجهها الدائم النهائى المستقر ، ثم تكشفت بعد ذلك خياناتهم وفعالهم فجرت فيهم الأحكام بحربهم واخضاعهم وفرض الجزية عليهم بعد ذلك صغارا .

والموادة رابطة غير لازمة للمسلمين ، فهي محتملة النقص (١) ، عند الشك في أى وقت ، فيكون للامام أن ينبذ اليهم عند خوفه من خيانتهم لقوله تعالى « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء » الأنفال الآية ٥٨ ، وهو اذا نبذ اليهم صاروا أهل حرب فلا تكون لنفوسهم ودمائهم عصمة ولا حرمة عند المسلمين ، فيجوز أن يأسروا منهم من يجوز أسره وتباح أموالهم لوقوع الحرب بينهم .

هذه هي جملة الأحكام التى نراها تحدد وضع اليهود من المسلمين في هذه الفترة . ولم نعر في كتب الفقه في المذاهب الثمانية (٢) على من تعرض لوصفها فهو أقرب ما فقهناه من تكييف ووصف والله أعلم .

وقد بينا من قبل رأى أستاذنا المستشار على على منصور (٣) أن العلاقة بين المسلمين واليهود في هذه الفترة ، تقوم على أساس أن كلا منهما أمة مستقلة عن الأخرى ، وأن كتاب النبى صلى الله عليه وسلم لما دخل المدينة كان معاهدة بين الطرفين — الأمة الإسلامية كطرف وأمة اليهود كطرف آخر — وأن هذه المعاهدة تنص على التحكيم مقدما منعا من الاحتكاك

(١) بدائع الصنائع الجزء السابع صفحة ١٠٩ .

(٢) التى تنتظمها بحوث موسوعة الفقه الإسلامى بالمجلس الأعلى للشئون الإسلاميه وهى المذاهب الأربعة والظاهرية والزيدية والامامية والاباضية .

المذاهب التى تنظم موسوعة الفقه الإسلامى (للمجلس الإسلامى الأعلى) على أساسها .

(٣) الشريعة الإسلاميه والقانون الدولى العام ص ٢١٢ ومابعدها ص ٣٧٥ ، ٣٧٦ .

والمنازعة ، بما جاء فيها من أن ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حديث أو اشتجار يخاف فساد فأن مرده الى الله والى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) وانها تقضى كذلك على استقلال كل من أمتى المسلمين واليهود (صفحة ٣٧٥) والتحالف العسكرى بينهما ، وذلك بما قرره من أن اليهود ينتفعون مع المؤمنين ماداموا محاربين .. وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وان بينهم النصر على من دهم يثرب) . وانما رجح لنا أن العلاقة بينهما ليست كذلك ، بل على أساس أن اليهود أقلية تعيش فى كنف الاسلام ، وضمن لهم هذا العهد حرّيتهم وعصمة مالهم ونفوسهم ، وذلك لما رجحناه من أن هذا الكتاب كان عملا من جانب واحد ، على أساس السلطة العامة ، ولم يكن نتيجة الاتفاق ، وانه يتضمن مبادئ القانون الداخلية فى الدولة لا تنظيم علاقة دولية بالمعنى المفهوم .. فما قرره الكتاب من الزام اليهود النفقة هو من قبيل تحميل الرعايا لجزء من النفقة العامة ، على الوجه الذى نص عليه بالنسبة للمسلمين أنفسهم .

واذن فقد كان اليهود فى مركز مؤقت — يختلف عما استقرت عليه أحكام الدين فيما بعد — يجعلهم أقلية موادعة للمسلمين يلتزمون حرمة الاسلام ويعيشون بين المسلمين مسالمين ، وإلهم مالهم ، وعليهم ما عليهم ، لا يدفعون الجزية ولا يلقون صفارا .

وعلى مدار هذه القواعد كانت تصرفات النبى صلى الله عليه وسلم مع من قتل من اليهود الغادرين ككعب بن الأشرف ، ومع المعتدين كيهود بنى قينقاع أو بنى النضير أو ناقضى العهد كيهود بنى قريظة أو المقاتلين كيهود خيبر .

وفهم تصرفاته صلى الله عليه وسلم على هذا المساق ينفى ما أثاره مؤرخو اليهود وغير المسلمين من التشويش والتحويل وتهمة القسوة وانسا هذه الأحداث يطبق فيها قوانين السير (الجهاد والحرب) وأحكامه وعومل اليهود فيها على أساس أنهم اما موادعون اعتدوا أو تقضوا وعلى أساس أنهم محاربون تطبق عليهم أحكام الحرب .

مقتل كعب بن الأشرف وهو من يهود

قال ابن اسحق (١) : وكان من حديث كعب بن الأشرف أنه لما أصيب أصحاب بدر وقدم زيد بن حارثة الى أهل السافلة (أسفل المدينة) وعبد الله ابن رواحة الى أهل العالية (أعلى المدينة) بشيرين بعثهما رسول الله صلى الله عليه وسلم الى من بالمدينة من المسلمين بفتح الله عز وجل وقتل من قتل من المشركين قال كعب بن الأشرف حين بلغه هذا الخبر أحق هذا ؟ أترون محمدا قتل هؤلاء الذين يسمى هذان الرجال ؟ (يعنى زيدا وعبد الله بن رواحة) . فهؤلاء أشرف العرب وملوك الناس والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها .

قال فلما يتقن عدو الله الخبر خرج حتى قدم مكة فنزل على عبد المطلب ابن أبي وداعة بن هبيرة السهمى وعنده عاتكة بنت أبي العاص أو العيص ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف . فأنزلته وأكرمه .

وجعل يحرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم وينشد الأشعار ويبكى أصحاب القلب من قريش الذين أصيبوا ببدر (لكى يثيروا أحزانهم ويهيجوا شجونهم) .

ثم رجع كعب بن الأشرف الى المدينة فشبيب (تغزل) بنساء المسلمين حتى آذاهم .

نقول فجمع كعب بن الأشرف فى ذلك بين اظهار الحقده على المسلمين وتحريض أعدائهم عليهم والاعتداء على حرمة المسلمين وايدائهم فى نسائهم .

قال ابن اسحق (٢) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من لى بابن الأشرف) فقال محمد بن مسلمة أخو بنى عبد الأشهل انا لك به يارسول الله انا أقتله . قال : فافعل ان قدرت على ذلك ؟

(١) سيرة ابن هشام صفحة ٤٣٠ وما بعدها .

(٢) سيرة ابن هشام ٤٣٦ وما بعدها .

فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثا لا يأكل ولا يشرب الا ما يعلق (يقيم) به نفسه فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه فقال له (لم تركت الطعام والشراب) فقال (يارسول الله قلت لك قولاً لا أدري هل أفى لك به أم لا) فقال انما عليك الجهد) قال : (يا رسول الله انه لا بد لنا من أن نقول (أى يكلم بعضنا بعضاً) قال (قولوا ما بدا لكم فأتهم فى حل من ذلك) .

فاجتمع فى قتله محمد بن مسلمة وسلطان بن سلامة بن وقش وهو أبو نائلة أحد بى الأشهل . وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاة وعباد بن بشر بن وقش أحد بنى عبد الأشهل والحرث بن أوس بن معاذ أحد بنى عبد الأشهل ، وأبو عيسى بن جبر أحد بنى حارثة .

قال ثم قدم سلطان بن سلامة الى عدو الله كعب بن الأشرف قبل أن يأتيه سائرهم فجاءه فتحدث معه ساعة وتناشرا شعرا وكان أبو نائلة (سلطان) يقول الشعر .

ثم قال ويحك يا ابن الأشرف انى جئتك لحاجة أريد أن أذكرها لك فاكم عنى (يعنى لاتفضى بها لأحد) قال فافعل قال كان قدوم هذا الرجل (يعنى محمداً) علينا بلاء من البلاء ، عادتنا به العرب ورمتنا عن قوس واحدة وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال وجهدت الأنفس وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا .

فقال كعب أنا ابن الأشرف أما والله لقد كنت أخبرك يا ابن سلامة أن الأمر سيعيد الى ما أقول (يعنى تنبأ بذلك) .

فقال له سلطان انى قد أردت أن تبيعنا طعاما ونرهنك ونوثق لك وتحسن فى ذلك .

فقال له كعب أترهنونى أبناءكم ؟ أو قال أترهنونى نساءكم ؟ قال لقد أردت أن تفضحنا (يعنى أن فى ذلك فضيحتنا) ان معى أصحابا نى على مثل رأى وقد أردت أن آتيك بهم فتبيع وتحسن فى ذلك ونرهنك من الحلقة (السلاح) ما فيه وفاء .

وأراد سلطان أن لا ينكر (يدهش) من السلاح اذا جاءوا به .
قال كعب ان فى الحلقة لوفاء .

قال فرجع سلطان الى أصحابه فأخبرهم خبره وامرهم أن يأخذوا
السلاح ثم ينطلقوا فاجتمعوا اليه ، ثم اجتمعوا عند رسول الله صلى الله
عليه وسلم .

قال ابن اسحق ومشى معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بقيع
الفرقد ثم وجههم فقال (انطلقوا على اسم الله . اللهم اعنهم) .

ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بيته وهو فى ليلة مقمرة .
وأقبلوا حتى انتهوا الى حصنه فهتف به أبو نائلة وكان حديث عهد
بعرس فوثب فى ملحفته فأخذت امرأته بناصيتها وقالت (انك امرؤ محارب
وان أصحاب الحرب لا ينزلون هذه الساعة) قال انه أبو نائلة لو وجدنى
نائما أيقظنى فقالت (والله انى لأعرف فى صوته الشر) قال (لو يدعى الفتى
لطعنة لأجاب) .

فنزل فتحدث معهم ساعة وتحدثوا معه ثم قالوا (هل لك يا ابن
الأشراف أن تمشى الى شعب العجوز (مكان) فتحدث به بقية ليلتنا هذه
فقال (ان شئتم) .

فخرجوا يتماشون . فمشوا ساعة .

ثم ان أبا نائلة أدخل يده فى فود رأسه ثم شم يده فقال (ما رأيت
كالليلة طيبا أعطر قط) ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها حتى اطمأن .

ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها فأخذ بفود رأسه ثم قال (اضربوا عذو
الله) .

فضربوه . فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغن شيئا . (ربما لتدرعه) .

قال محمد بن مسلمة فذكرت معولا (سكيناً) فى سيفى حين رأيت
أسيافنا لا تغنى شيئا فأخذته وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن
الا وقد أوقدت عليه نار (أى سمعوا الصيحة فأضاءوا) .

قال فوضعتة (أى السكين) فى ثنته (أسفل البطن) ثم تحاملت عليه حتى بلغت عاتقه .

فوقع عدو الله .

وقد أصيب الحارس بن أوس بن معاذ فجرح فى رأسه أو فى رجله ... أصابه بعض أسيافنا .

قال فخرجنا حتى سلطنا على بنى أمية بن زيد ثم على بنى قريظة ثم على بعث حتى أسندنا (ارتفعنا) فى حرة العريض (مكان) وقد أبطأ علينا صاحبنا الحرث بن أوس ونزفه الدم فوقفنا ساعة ثم أانا يتبع آثارنا .

قال فاحتلناه فجئنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر الليل وهو قائم يصلى . فسلمنا عليه فخرج إلينا فأخبرناه بقتل عدو الله .

ورجعنا الى أهلنا وقد خافت يهود لوقتتنا بعدو الله فليس بها يهودى الا وهو يخاف على نفسه .

نتائج قتل كعب

كان من أثر قتله أنه أوقع الهيبة فى نفوس اليهود المنافقين . وخفقت أصوات مجاهرتهم بالعداوة والتحريض على المسلمين .

قليل وكان ذلك تمهيدا لايقاع الرعب فى قلوب بنى قينقاع لاجلائهم عن البلاد وقمع روح مقاومتهم لأمره صلى الله عليه وسلم اذ أمرهم بالجلء . وعلى أية حال فانه بداية سياسة الحزم والسيف مع اليهود وانتهاء الملاينة والتسامح معهم .

ما وجه من نقد الى هذه الواقعة

ولقد أكثر المؤرخون الغربيون من نقد هذا التصرف ووصفوه بأوصاف مناسبة

واذا طبقنا عليه مقاييس الشريعة الاسلامية لوجدنا أن كعب ابن الأشرف قد تكون له صفة الموادع اذا اعتبرناه من مطلق أهل المدينة من اليهود الذين شملهم عهده صلى الله عليه وسلم لليهود حين دخلها ، قلنا ان

ذلك العهد تضمن لهم الموائد جميعا لا من ذكروا فقط . وان كعبا وقد خرج من دار الاسلام ولحق بدار الحرب وحرص أهلها على المسلمين يعتبر بذلك ناقضا لعهد فتطبق عليه أحكام الحربى وتزول عصمة نفسه وماله فى دار الاسلام (١) فيحل قتله أما اذا قلنا ان العهد قد تضمن أناسا بخصوصهم وأن كعبا لم يكن من أحد بطون اليهود فلا هو الى بنى النضير ولا الى بنى قريظة أو غيرهم وانما كان من طيىء وأمه نضيرية فانه لا يكون ممن انصرف اليهم عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل المدينة ويكون القول فيه بما تقدم من باب أولى . وتطبق على الحربيين أحكام القتال .

(١) بدائع الصنائع (حنفى) الجزء السابع صفحة ١٠٩ وما بعدها . والمهذب للشيرازى (شافعى) الجزء الثانى صفحة ٢٥٧ فى الذمى فهو فى الموائد أولى و ٢٦١ بالنسبة للموائد .

الفصل السادس

إخراج بنى قينقاع من المدينة

قال ابن اسحق (١) كان من حديث بنى قينقاع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمعهم بسوق بنى قينقاع ثم قال (يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة وأسلموا فانكم قد عرفتم أنى نبي مرسل تحدون ذلك فى كتابكم وعهد الله اليكم . قالوا : (يا محمد انك ترى انا قيمك لا يغرنك انك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب — فأصبت منهم فرصة . انا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس) .

وقال ابن هشام كان من بنى قينقاع أن امرأة من العرب قدمت لجلب (بضاعة) بها. فباعته بسوق بنى قينقاع وجلست الى صائغ بها فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت فعمد الصائغ الى طرف ثوبها فعقده الى ظهرها بشوكة فلما قامت انكشفت سوءتها . فضحكوا بها فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهوديا فشد اليهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ أهل المسلم على اليهود فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع .

قال ابن اسحق فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه . واستعمل على المدينة فى محاصرته اياهم بشير بن عبد المنذر وكانت محاصرته اياهم خمس عشرة ليلة .

فقام اليه عبد الله بن أبى بن سلول حين أمكنه الله منهم فقال يا محمد احسن فى موالى وكانوا حلفاء الخزرج . قال فأبطأ عليه رسول الله صلى الله

(١) سيرة ابن هشام المجلد الثامى صفحة ٤٢٦ .

عليه وسلم فقال يا محمد أحسن في موالى قال فأعرض عنه فأدخل يده في جيب درع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يقال لها ذات الفضول . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم (أرسلنى) وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رأوا لوجهه ظللا جمع ظلة وهى (السحابة) ثم قال (ويحك أرسلنى) قال لا والله لا أرسلك حتى نحسن في موالى . أربعمائة حاسر (يعنى بنى قينقاع من ليس عليهم دروع) وثلاثمائة دارع (لابس الدرع) قد منعونى من الأحمر والأسود تحصدهم فى غداة واحدة ؟ انى والله امرؤ أخشى الدوائر . قال : (فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم) (هم لك) .

قيل وقد أعقب عفو النبى صلى الله عليه وسلم عن بنى قينقاع أمره لهم أن يغادروا المدينة فى ثلاثة أيام لا يأخذون معهم أموالهم ومتاعهم ووكل انبى صلى الله عليه وسلم عبادة بن الصامت وكان حليفا لبنى قينقاع ثم برىء من حلفهم أن يكون مشرفا على ترحيلهم وتنفيذ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم . ورفض عبادة بن الصامت أن يجيهم الى ما طلبوه من زيادة المهلة للجلاء . وذهب عبد الله بن أبى بن سلول الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله العفو عن بنى قينقاع وابقاءهم فى مقامهم فنعه الصحابة عن باب النبى صلى الله عليه وسلم ودفعوه عنه فدافعهم وتشاجر معهم وشج رأسه فلما بلغ اليهود ذلك قالوا (والله ما تقيم ببلد تشج فيه يا بن أبى ولا نستطيع عنك دفاعا) وجلوا عن المدينة بنسائهم وأولادهم وما سح لهم بحمله من أموالهم ومتاعهم حتى نزلوا بأذرعات على حدود الشام .

وعن ابن عباس أنه نزل فيهم لما شادوا بأنهم أهل الحرب (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية فى فتنتين التقتا (أصحاب بدر وقريش) فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار (آل عمران الآية ١٢ وما بعدها) .

ولما تثبت عبد الله بن أبي بن سلول بحلف بنى قينقاع وتبرأ عبادة بن الصامت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من حلفه له وكان أحد بنى عوف وكان لهم حلف مثل الذى لهم من عبد الله بن أبي نزل قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منهم فانه منهم ان الله لا يهدي القوم الظالمين فترى الذين فى قلوبهم مرض (مثل عبد الله بن أبي) يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة (لقوله انى امرؤ أخشى الدوائر) فعسى الله أن يأتى بانفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين . (المائدة الآية ٥١ وما بعدها) وقد جاء بعدها (انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون) .

(المائدة الآيتين ٥٥ و ٥٦) .

ما قيل فى أسباب يوم بنى قينقاع :

قال ولفستون ان السبب فى البدء بينى قينقاع على ما وصف بالذات هو أنهم كانوا أغنى أحياء اليهود وما كان عليه المهاجرون من سوء الحال وانتظار الحرب . وانهم كانوا قليلى العدد ولم يكونوا كسائر اليهود فى الدراية بالحرب لأنهم أهل صناعة وحضر وانهم كانوا موالى الخزرج وقد دخل معظم الاسلام فبقى بنو قينقاع بلا نصير كما أنه كان بينهم وبين سائر بطون اليهود خلاف ولما كان يوم بعث قامت بينهم الحرب فى جانب الخزرج وبين بنى قريظة وبنى النضير حلفاء الأوس ولذلك سهل على المسلمين اخراجهم .

وظاهر ما فى هذا القول من تحامل . ينفيه من ناحية أنهم تناولوا وتفاخروا يومها بأنهم أهل حرب كما ينفيه من ناحية أخرى أن عبد الله بن أبي انتصر لهم .

وقال المرحوم محمد حسين هيكمل (١) ان بنى قينقاع كانوا يقيمون فى المدينة وان سائر اليهود كانوا يقيمون بعيدا عنها . ولذلك كان اجلاؤهم

(١) حياة محمد صفحة ٢٧٤ .

لاخلاء المدينة من اليهود تأميناً للخطوط الداخلية وتمكيناً لوحدها التي استهدفها رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

وانما نرى أن نعود الى ما اخترناه من أنه صلى الله عليه وسلم كان يعمل بالوحي وان تكشف بعد ذلك الناس ما في عمله صلى الله عليه وسلم من مطابقة لمقتضيات السياسة ولذلك تقف عند الأسباب المباشرة وهي أنهم أظهروا العداوة للمسلمين بعد بدر وفجروا بهم حتى كان هذا الصائغ يجرّد امرأة من المسلمين من ثوبها في السوق حتى تبدو سوءتها وفي ذلك غاية الاستهانة بعصمة المسلمين في أعراضهم والخط منهم ، وحتى تقوم الحرب بين الفريقين في قلب المدينة وكان من الجائز أن ينتصر فريق من الخزرج لهم فتندفع الشرارة بين المسلمين وفي ذلك تهديد للأمن وقت الحرب فما زال اليهود أهل حقد وفتنة وفساد على هذه الصورة فقد ساغ اخراجهم من المدينة .

وكذلك فان النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم الناس أمر دينهم . ومن أموره أن أهل الكتاب عليهم أن يحفظوا للمسلمين أعراضهم وأن يكون الدين ظاهراً في دار الاسلام فاذا أحدث أهل الموادة ذلك كان نقضا للعهد في جميع المذاهب (١) وهو يجيز قتالهم .. وانما أجاز النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الواقعة أن يعطيهم أجلاً في أن يخرجوا من بلاد الاسلام ثم اذا خرج فبلغ مأمنه جاز قتله ان قدر عليه . فهي معاملة أفضل مثل معاملة أصحاب الهدنة لأجل مسمى غير الناقصين أن يتموا اليهم عهدهم الى مدتهم في قوله تعالى :

(الا الذين تاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم) . (التوبة الآية ٤) .

وقد أشرنا من قبل أن آية الجزية (التوبة رقم ٢٩) لم تكن نزلت في ذلك الوقت أما خروجهم بدون أموالهم ففيه - كما أرى - أنهم

(١) انظر المراجع السابق الاشارة اليها في المذاهب الاربعة .

بخرجهم ولحاقهم بدار الحرب قد صاروا حربيين فلا يتقون بما يحملونه من مال يتخذونه ارسادا لمحاربة الله ورسوله والمؤمنين ، والله أعلم .

نتائج اخراج بنى قينقاع من المدينة

ترتب على اخراجهم ما قدمناه من استتباب أمن المدينة ووحدتها . وبخاصة عند الحرب .

كما ترتب عليه زيادة هبة المسلمين في القلوب وانقطاع الجدل العلى والمناقشة المفرضة في الدين .

الفصل السابع

إجلاء بنى النضير

وسببها غدر اليهود برسول الله صلى الله عليه وسلم لما أتاهم يستعينهم في فدبة فقد كان عمرو بن أمية ضامن من غدر المشركون بهم عند بئر معونة ونجاء الله فلما كان في طريق عودته الى المدينة وقع برجلين قتلتهما . وكانا من بنى عامر . فلما قص ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ياعمرؤ بئس ما صنعت قتلت رجلين كان لهما منى أمان وجوار فوجب على ديتهما أو كما قال .

قال ابن اسحق (١) ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بنى النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بنى عامر اللذين قتلتهما عمرو بن أمية الضمري للجوار الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقده لهما . وكان بين بنى النضير وبين بنى عامر عقد وحلف .

فلما أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعينهم في دية ذينك القتيلين قالوا « نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه » . ثم خلا بعضهم ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس الى جنب جدار من بيوتهم .

فقالوا « انكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟ »

فاتتدب لذلك عمرو بن جحاش . فقال « أنا لذلك » .

فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلى رضوان الله عليهم .

(١) سيرة ابن هشام المجلد الثاني صفحة ١٩٢ .

فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما أراد القوم .
فقام « وكأنه سيقضى حاجة له » وخرج راجعا الى المدينة .
فلما استلبث « طال انتظار » أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم
قاموا لطلبه .

فلقوا رجلا مقبلا من المدينة فسألوه فقال رأيته داخل المدينة .
فأقبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهوا الىه صلى الله
عليه وسلم فأخبرهم بما كانت اليهود أرادت من الغدر به وأمر رسول الله
صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ لحربهم والسير اليهم .
ثم سار بالناس حتى نزل بهم فحاصرهم فيها ست ليال فتحصنوا منه
في الحصون .

فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع النخيل والتحريق فيها .
فنادوه يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بال
قطع النخيل وتحريقها ؟ .

وقد كان رهط من بنى عوف بن الخزرج فيهم عدو الله عبد الله بن أبى
ابن سلول ووديعة ومالك بن أبى قوئل وسويد وداعس قد بعثوا الى بنى
النضير « أن اثبتوا وتمنعوا فانا لن نسلمكم ان قوتلتهم قاتلنا معكم ، وان
أخرجتم خرجنا معكم » .

فتربصوا ذلك من نصرهم . فلم يفعلوا .

وقذف الله في قلوبهم الرعب وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم
أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الابل من أموالهم الا
الحلقة (السلاح) ففعل .

فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الابل فكان الرجل منهم يهدم بيته
عن نجاف بابه (العتبة التى بأعلى الباب) فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به .
فخرجوا الى خيبر ومنهم من سار الى الشام .

وكان من أشرافهم الذين ساروا الى خيبر سلام بن أبى الحقيق وكنانة
ابن الربيع وحبي بن الأخطب فما نزلوا حتى دان (خضع) لهم أهلها .

قال ابن اسحق انه حدث أنهم (أى بنى النضير) استقلوا (خرجوا) بالنساء والابناء والموالى ومعهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن خلفهم وان فيهم لأم عمرو صاحبة عدوة بن الورد العبسى وكانت احدى نساء بنى غفار . وخرجوا بزهاء (أى زهو وتكبر واعجاب) مارئى مثله من حى من الناس فى زمانهم .

وخلوا الاموال لرسوله الله صلى الله عليه وسلم . فكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاها المهاجرين الأولين دون الأنصار الا أن سهل ابن حنيف وسماك بن خرشة ذكرا فقرا فأعطاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يسلم من بنى النضير الا رجلا ن يامين بن عمير بن كعب بن عمرو ابن جحاش ، وأبو سعد بن وهب أسلما على أموالهما فأحرزاهما .

قال ونزل فى بنى النضير سورة الحشر بأسرها تذكر ما أصابهم الله به من نعمته وما سلط عليهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم وما عمل به فيهم فقال تعالى « هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر (يعنى تجمع اليهود فى ذهابهم الى ماهاجروا اليه) ماظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم (لهدمهم نجف أبوابهم) وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يتناق الله فان الله شديد العقاب » (الحشر الآية ٢ وما بعدها) .

وفىها كما قدمنا ذكر عبد الله بن أبى ونفاقه وخلفه بوعدة لبنى النضير بقوله « ألم تر الى الذين نافقوا » (الآية ١١ وما بعدها) .

بعض ما قيل فى هذه الواقعة

قال ولفستون فى كتابه السابق (١) أنه يستبعد قصة الغزم على القاء الحجر على النبى صلى الله عليه وسلم لانها لم ترد فى سورة الحشر اشارة

(١) تاريخ اليهود فى الجاهلية والاسلام صفحة ١٣٦ .

اليها وان « الذى يظهر لكل ذى عينين أن بنى النضير لم يكونوا ينوون الغدر بالنبي واغتياله على مثل هذه الصورة لأنهم كانوا يخشون عاقبة فعلهم من أنصاره ولو أنهم كانوا ينوون اغتياله لما كانت هناك ضرورة لالتقاء صخرة عليه من فوق الحائط بل كان فى استطاعتهم أن يفاجئوه وهو يحدثهم اذ لم يكن معه الا نفر قليل . »

ويلاحظ ما فى قوله من تناقض فبسبب أنهم كانوا يخشون عاقبة فعلهم من أنصارهم لم يكن فى استطاعتهم أن يفاجئوه بالقتل العمد الظاهر بل كان لا بد أن يفعلوا الاصابة قضاء وقدرًا مخافة غضب أنصاره .

وقال ان السبب فى أنهم كانوا يخلعون نجف أبوابهم ويحملونها معهم هو عادة اسرائيلية قديمة سببها أنهم كانوا يضعون بعض التوراة أعلى الباب لحفظ بيوتهم ولذلك استصحبوا نجف أبوابهم وفيها هذه الكتب .

وقال البعض كانوا يجعلون فيها من كنوزهم .

وقيل ان أخذهم بذلك كان بدون نية ظاهرة ودليل مثبت لادانتهم وأنه لا يكفى الاستناد لحديث النفس لتوقيع العقاب ولو كان بينا لأنه قد يشرع لغيره .

وهذا قول الذين لا يؤمنون بالوحى اليه صلى الله عليه وسلم .

الا اتنا قدمنا أن أصل الرخصة فى ذلك قوله تعالى « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء » والخوف أمر ذاتى مرده الى المقياس الداخلى النفسى وشعور عدم الاطمئنان ولا يلزم فيه الدليل الظاهر وعقد المواعدة كما قدمنا عقد غير لازم .

ونلاحظ أن ما وقع على بنى النضير شبيه بما وقع على بنى قينقاع وهما شبيهان فى أنهم من الوادعين الذين أوقعوا فسادا فيجوز معه جلاؤهم على الوجه الذى بيناه .

الفصل الثامن

غزوة بنى قريظة

وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
مِنْ صَيِّصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرِّعْبَ
فَرِيضَةً يَكْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ قَرِيبًا
• قرآن كريم •

وسببها كما قاله ابن اسحق (١) ان نفرا من اليهود منهم سلام بن أبي
الحقيق النضري وحبي بن أخطب النضري وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق
النضري وهودة بن قيس الوائلي وأبو عسار الوائلي في نفر من بنى النضير
ونفر من بنى وائل وهم الذين حاربوا الاحزاب على رسول الله صلى الله عليه
وسلم خرجوا حتى قدموا على قريش بسكة فدعوههم الى حرب رسول الله
صلى الله عليه وسلم وقالوا انا سنكون معكم عليه حتى نستصله .

فقاتلت لهم قريش : « يامعشر يهود ، انكم اهل الكتاب الاول والعلم
بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد . أفديننا خير أم دينه ؟ » . قالوا « بل
دينكم خير من دينه . وأنتم أولى بالحق منه » .

وهم الذين أنزل الله تعالى فيهم « ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من
الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت (الأصنام) ويقولون للذين كفروا هؤلاء

(١) سيرة ابن هشام المجلد الثالث صمعة ١٦٩ .

أهدى من الذين آمنوا سيلا أولئك الذين لعنهم الله . ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا » (سورة النساء الآيات ٥١ وما بعدها) •

أقول حتى ولفستون المؤرخ اليهودى المتعصب (١) يقول فى ذلك « ولكن الذى يلامون عليه بحق ويؤلم كل مؤمن باله واحد من اليهود والمسلمين على السواء انما هو تلك المحادثة التى جرت بين نفر من اليهود وبين بنى قريش الوثنيين حيث فضل هؤلاء النفر من اليهود أديان قريش على دين صاحب الرسالة الاسلامية » ويتلمس لهم العذر فيقول « ومن ينظر الى الحالة التعسة التى صار اليها بنو النضير بعد اجلائهم عن بلاد سكنوها منذ قرون وكانوا فيها أصحاب السلطان المطلق والثروة الطائلة والمزايا الواسعة لا يوجه اليهم أقل لوم على محاولتهم الرجوع الى أراضيهم وبخثهم عن الأنصار والأحلاف الذين يعينونهم على تحقيق أمنهم والثأر من خصومهم فان هذه سجية البشر وطبيعة من الطبائع الانسانية بل وعمل مشروع لدى جميع الأمم وكلامه هذا صورة صادقة وطبق الأصل لما نعاه الله على بنى اسرائيل من حب الحياة وشرائها بالآخرة والباس الحق بالباطل فى الجدل العلمى • ونموذج يعيد الى أذهانتنا ما ذكرناه فى الفصل الأول مما نزل فيهم .

قال ابن اسحق (٢) فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعوهم اليه من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمعوا لذلك واستعدوا له ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان فدعواهم الى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروهم أنهم سيكونون معهم وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك ، فاجتمعوا معهم فيه .

وخرج المشركون للقتال وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق حول المدينة .

قال ابن اسحق (٣) وخرج عدو الله حبي بن أخطب النضرى حتى أتى كعب بن أسعد القرظى صاحب عقد بنى قريظة وعهدهم وكان قد وادع

(١) كتابه تاريخ اليهود صفحة ١٤٢ •

(٢) سيرة ابن هشام المجلد الثالث صفحة ١٦٩ •

(٣) السيرة المجلد الثالث صفحة ١٧٤ •

رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه وعاقده على ذلك وعاهده فلما
سمع كعب بن جحيى بن أخطب أغلق دونه باب حصنه فاستأذن عليه فأبى أن
يفتح له .

فناداه جحيى « ويحك يا كعب افتح لى »

قال « ويحك يا جحيى انك امرؤ مشئوم وانى قد عاهدت محمدا فلست
بناقض ما بينى وبينه ولم أر منه الا وفاء وصدقا » .

قال « ويحك افتح لى أكلمك » .

قال « ما أنا بفاعل » .

قال « والله ما أغلقت الحصن دونى الا تخوفا على جشيشتك (طعام
يصنع من الحب المدشوش) أن آكل منها معك » .
فاحفظ (لفاظ) الرجل . ففتح له .

فقال « ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر وببحر طمام . جئتك بقريش على
قاداتها وساداتها حتى بمجتمع الاسبال من دومة (مكان) وبغطفان على قاداتها
وساداتها وأنزلتهم بذنب تقمى (مكان) الى جانب أحد قد عاهدونى
وعاهدونى على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه » .

فقال له كعب « جئتنى والله بذل الدهر وبجهام (سحب فارغ) قد
هراق ماءه فهو يرعد ويرق ليس فيه شيء ويحك يا جحيى فدعنى وما أنا عليه
فانى لم أر من محمد الا صدقا ووفاء » .

فلم يزل جحيى بكعب يقتله فى الذروة والغارب (يأخذه بالحيلة) حتى
سمح له وأعطاه عهدا وميثاقا لئن رجعت قریش وغطفان ولم يصيبوا محمدا
أن أدخل معك فى حصنك حتى يصيبنى ما أصابك .

فنفق كعب بن أسد عهده وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله صلى
الله عليه وسلم .

فلما انتهى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر والى المسلمين
بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ بن النعمان وهو يومئذ

سيد الاوس وسعد بن عباد بن دليم أحد بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج - وهو يومئذ سيد الخزرج - ومعهما عبد الله بن رواحة أخو بنى الحرث بن الخزرج وخوات بن جبير أخو بنى عمرو بن عوف فقال « انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا من هؤلاء القوم أم لا فان كان حقا فالحنوا (يعطوه اشارة خفية فى كلامهم) لحنا أعرفه ولا تقتوا فى أعضاء الناس (يضعفونهم) وان كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس » .

فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم . نالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا « من رسول الله ؟ لاعهد بيننا وبين محمد ولا عقد » .

فشأتهم سعد بن معاذ وشاتموه . وكان رجلا فيه حدة .

فقال له سعد بن عباد « دع عنك مشأتهم فما بيننا وبينهم أربى (أكثر) من المشامة » .

ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلموا عليه ثم قالوا « عضل والقارة » أى كغدر القارة بأصحاب الرجع خيب وأصحابه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين » .

أقول ودارت معركة الأحزاب . وقال ابن اسحق وحاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت صفية بنت عبد المطلب فى حصن لحسان بن ثابت يقال له فارغ قالت « وكان حسان ابن ثابت معنا فيه مع النساء والصبيان ، قالت « فمر بنا رجل من يهود جعل يطوف بالحصن وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون فى نحور « صدور » عدوهم « أى فى الخطوط الامامية » لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم اليانا وان أتانا آت « قالت « فقلت : يا حسان ، ان هذا اليهودى كما ترى يطوف بالحصن وانى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا « خفايانا » من وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فانزل اليه فاقتله فال يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب ، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا » .

قالت « فلما قال لى ذلك ولم أر عنده شيئا من « النخوة » احتجرت « شددت وسطى » ثم أخذت عمودا « قضيبا من حديد » ثم نزلت من الحصن اليه . فضربته بالعمود حتى قتلتها ، قالت فلما فرغت منه رجعت الى الحصن فقلت يا حسان انزل اليه فاسلبه فانه لم يمنعنى من سلبه الا أنه رجل قال (مالى بسلبه من حاجة يا ابنة عبد المطلب) .

قال ابن اسحق ثم ان نعيم بن مسعود بن عامر بن قنفذ بن هلال بن خلادة بن أشجع بن ريث بن غطفان أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا رسول الله انى قد أسلمت وان قومى لم يعلموا باسلامى فمرنى بما شئت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « انما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا (يعنى اجعل الاعداء ينخذلون عن متابعة الحرب معنا) ان استطعت فان الحرب خدعة » .

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة وكان لهم نديما فى الجاهلية فقال يابنى قريظة قد عرفتم ودى اياكم وخاصة ما بينى وبينكم ، فقال لهم « ان قريشا وغطفان ليسوا كأتتم (ليس حالهم كحالكم) البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لاتقدرون على أن تحولوا منه الى غيره . وان قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه وبلدكم وأموالهم ونساؤهم بغيره فليسوا كأتتم فان رأوا نهزة (فرصة) أصابوها وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به ان خلا بكم فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشrafهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا حتى تانجزوه ، فقالوا لقد أشرت بالرأى » .

ثم خرج نعيم حتى أتى قريشا فقال لأبى سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش « قد عرفتم ودى لكم وفراقى محمدا وانه قد بلغنى أمر رأيت على حقا أن أبلغكموه نصحا لكم فاكتموا عنى » .

قالوا (نفعل) قال (تعلمون ان معشر يهود قد ندموا على ما صنعوه فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا اليه انا قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن تأخذ لك من القبلتين من قريش وغطفان رجالا من أشrafهم فنطيك اياهم

فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل
إنيهم أن نعم فإن بعث اليكم يهود يلتسون منكم رهنا من رجالكم فلا
تدفعوا اليهم منكم رجلا واحدا) .

ثم خرج حتى أتى غطفان وقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم
ما حذرهم .

وطلبت اليهود من القبيلتين أن يعطوهم رهنا من رجالهم حتى لا يتركوهم
الى بلادهم اذا اشتدت الحرب وهم لا طاقة لهم به فلما بلغهم ذلك قالت
قريش وغطفان (والله ان ما حدثكم به نعيم بن مسعود لحق) فأرسلوا الى
بنى قريظة (انا لا ندفع اليكم رجلا واحدا من رجالنا فان كنتم تريدون القتال
فاخرجوا فقاتلوا) . فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل اليهم بهذا . (ان
الذى ذكر نعيم بن مسعود لحق . ما يريد القوم الا أن تقاتلوا فان رجعوا
الى بلادهم خلوا بيننا وبين الرجل فى بلدنا) .

فأرسل بنو قريظة الى قريش وغطفان (انا والله لا نقاتل معكم محمدا
حتى تعطونا رهنا) فأبوا عليهم . وخذل الله بينهم وبعث الله عليهم الريح فى
ليلة شاتية باردة شديدة البرد . فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم أو
آنيتهم . فرجعوا الى بلادهم .



قال ابن اسحق (١) ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف
عن الخندق راجعا الى المدينة والمسلمون ووضعوا السلاح فلما كانت الظهر
أتى جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم معتجرا بعمامة يعنى
يلفها على رأسه فقط دون أن يحيط لحيته بطرفها من استبرق (حرير) على
بغلة عليها رحالة سرج عليها قطيفة من ديباج . فقال (أو قد وضعت السلاح
يا رسول الله ؟) .

قال (نعم)

(١) سيرة ابن هشام المجلد الثالث صفحة ١٨٧ وما بعدها .

قال جبريل (فما وضعت الملائكة السلاح بعد ولما رجعت الآن الا من طلب القوم ان الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير الى بنى قريظة فاني عامد اليهم منزلهم) (رواه البخارى بمعناه عن عائشة) .

فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذنا فأذن فى الناس (من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر الا بينى قريظة) . (رواه البخارى أيضا) .

وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب رضوان الله عليه بزيارته الى بنى قريظة ، وابتدورها الناس . فسار على بن أبى طالب حتى اذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع حتى لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطريق فقال يا رسول الله لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث قال (ولم ؟ أظنك سمعت منهم لى أذى) قال (نعم يا رسول الله) قال (لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئا) . فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم قال (يا اخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل نقمته ؟) .

قالوا (يا أبا القاسم ما كنت جهولا)

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفر من أصحابه بالصورين (مكان) قبل أن يصل الى بنى قريظة فقال (هل مر بكم أحد ؟) قالوا (يا رسول الله قد مر بنا دحية الكلبي على بغلة بيضاء عليها رحالة عليها قطيفة ديباج) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ذلك جبريل بعث الى بنى قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب فى قلوبهم) .

ولما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى قريظة نزل على بشر من آبارها بناحية أموالهم يقال لها أنى .

وتلاحق به الناس فأتى رجال منهم من بعد العشاء الآخرة .

وحاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى قريظة خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار وقذف الله فى قلوبهم الرعب وقد كان حبي بن اخطب دخل مع بنى قريظة فى حصنهم حتى رجعت عنهم قريش وغطفان وفاء لكعب ابن أسد بما كان عاهده عليه .

قال كعب بن أسد لهم (يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون واني عارض عليكم خلا لا ثلاثا فخذوا أيها شتم) قالوا (ما هي ؟) قال (تتابع هذا الرجل ونصده . فوالله لقد تبين لكم انه لنبي مرسل وانه للذي تجدونه في كتابكم فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم) قالوا (لا تفارق حكم التوراة أبدا . ولا نستبدل به غيره) .

قال قتل النساء والصبيان ثم فخرج الى محمد وأصحابه رجلا مصلتين انسيوف لم تترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فان فهلك فهلك ولم تترك وراءنا نسلا نخشى عليه . وان نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء) قالوا (نقتل هؤلاء المساكين ؟ فما خير العيش بعدهم ؟) قال (فان أيتهم على هذه ، فان الليلة ليلة السبت وانه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد آمنوا فيها فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة) قالوا (تصد سبتنا علينا ؟ ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا الا من قد علمت فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ ؟) قال (ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما أى مستقرا على رأى) .

ثم انهم بعثوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابعث إلينا أبا لبابة ابن عبد المنذر أخا بنى عمرو بن عوف وكانوا حلفاء الأوس لنستشيره فى أمرنا (١) .

فأرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم . فلما رأوه قام اليه الرجال وجهش (بكى) اليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه فرق لهم .

وقالوا يا أبا لبابة أترى أن نزل على حكم محمد ؟

قال نعم (٢) وأشار بيده الى حلقه انه الذبح .

قال أبو لبابة فوالله ما زالت قدمائى من مكانهما حتى عرفت أنى قد خنت الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم

(١) سيرة ابن هشام المجلد الثالث صفحة ١٩٠ وما بعدها .

(٢) الرواية هكذا عبر متسفة وقد يكون قال لهم « لا » حتى يسوغ مايعتبر خيانة منه وحتى يتفق مع اشارته لهم بأنه الذبح . وبخاصة أن النبی صلی الله عليه وسلم لم يكن قد اتخذ فيهم قرارا حتى يعتبر أنه أفشى سرا والله أعلم بما كان .

يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ارتبط في المسجد الى عمود من
عمده وقال (لا أبرح من مكاني هذا حتى يتوب الله على مما صنعت وأعاهد
الله ان لا آتى قريظة أبدا ولا أرى في بلده خنت الله ورسوله فيه أبدا) .

قيل فأنزل الله تعالى في أبي لبابة (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله
والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون) قال ابن اسحق فلما بلغ رسول
الله صلى الله عليه وسلم خبره - وكان قد استبطأه - قال (أما انه لو جاءني
استغفرت له . فأما اذ قد فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله
عليه .)

ونزلت توبة أبي لبابة على رسول الله صلى الله عليه وسلم من سحر وهو
في بيت أم سلمة قالت أم سلمة رضى الله عنها فسمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم من سحر وهو يضحك قالت فقلت (مم تضحك يا رسول الله أضحك
الله سنك ؟) قال (تيب على أبي لبابة) قالت (أفلا أبشره يا رسول الله ؟) قال
(بلى ان شئت) فقامت على باب حجرتها وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب
فقالت (يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك) فثار الناس اليه ليطلقوه فقال
(لا والله حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يطلقني بيده)
(فلما مر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خارجا الى صلاة الصبح
أطلقه) .

قال ابن هشام أقام أبو لبابة مرتبطا بالجذع ست ليال تأتبه امرأته في
كل وقت صلاة فتحله للصلاة ثم يعود فيربط بالجذع . والآية التي نزلت في
توبته قوله عز وجل (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر
سيئا عسى الله أن يتوب عليهم) (التوبة الآية ١٠٢) .

قال ابن اسحق (١) فلما أصبح بنو قريظة نزلوا على حكم رسول الله
صلى الله عليه وسلم فتواثبت الأوس فقالوا يا رسول الله صلى الله عليك
وسلم انهم كانوا موالينا دون الخزرج وقد فعلت في موالى اخواننا بالأمس
ما قد علست وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بنى قريظة قد حاصر

(١) سيرة ابن هشام المجلد الثالث صفحة ١٩٢ وهذا الحديث حجة في المذاهب الثمانية
في استئصال المشركين على حكم .

بنى قينقاع وكانوا حلفاء الخزرج فنزلوا على حكمه فسأل إياهم عبد الله بن أبي بن سلول فوهبهم له . فلما كلمه الأوس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم) قالوا !! بلى (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم) فذاك الى سعد بن معاذ (لأن سعدا كان رأس الأوس يومها) وكان جريحا لاصابته وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جعل سعد بن معاذ بسبب جرحه فى خيمة لامرأة من (قبيلة) أسلم يقال لها رفيدة فى مسجده . كانت تداوى الجرحى وتحسب بنفسها خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال لقومه حين أصابه (أى سعد) السهم بالخندق (اجعلوه فى خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب) .

فلما حكمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطأوا له بوسادة من آدم (جلد) وكان رجلا جسيما جميلا ، ثم أقبلوا معه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يقولون (يا أبا عمرو أحسن فى مواليك فان رسول الله صلى الله عليه وسلم انما ولاك ذلك لتحسن فيهم) .

فلما أكثروا عليه قال (لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم) . فرجع بعض من كان معه من قومه الى دار بنى عبد الاشهل فنعى لهم رجال بنى قريظة (أخبر بموتهم) قبل أن يصل اليهم سعد عن كلمته أى مستنتجا من كلمته التى سمع منه .

فلما انتهى سعد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قوموا الى سيدكم) فأما المهاجرون فيقولون انما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار . وأما الأنصار فيقولون قد عم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين .

فقاموا اليه .

فقالوا (يا أبا عمرو ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم) .

فقال سعد بن معاذ (عليكم بذلك عهد الله وميثاقه ان الحكم فيهم لما حكمت ؟)

قالوا (نعم)

قال (وعلى من ههنا ؟) فى الناحية التى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معرض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم واجلالا له .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (نعم)

قال سعد (فانى أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذرارى والنساء) .

قال ابن اسحق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد (لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة ارقعة) (سماوات) .

ثم استنزلوا فحبسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فى دار بنت الحرث ؟ امرأة بنى النجار .

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى سوق المدينة فخندق بها خنادق ثم بعث اليهم ف ضرب أعناقهم فى تلك الخنادق يخرج بهم الى ارسالا (طائفة بعد طائفة) .

وفيههم عدو الله حبي بن اخطب وكعب بن أسد رأس القوم وهم ستمائة أو سبعمائة والمكثر لهم يقول كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة .

وقد قالوا لكعب بن أسد وهم يذهب بهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ارسالا (يا كعب ما تراه يصنع بنا ؟) قال (أفى كل موطن لا تعقلون ؟ ألا ترون الداعى لا ينزع (لا يكف) وانه من ذهب به منكم لا يرجع ؟ هو والله القتل) فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

اصرار بعض اليهود

وأتى بحبي بن اخطب عدو الله وعليه حلة فقاحية (فى لون الزهر الضارب للحمرة) قد شقها عليه من كل ناحية قدر أنملة لئلا يسلبها مجموعة يداه الى عنقه بجبل .

فلما نظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (أما والله ما لمت نفسي على عداوتك ، ولكنه من يخذل الله يخذل)

ثم أقبل على الناس فقال (يا أيها الناس انه لا بأس بأمر الله كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بنى اسرائيل) .

ثم جلس فضربت عنقه .

قال وقتلت امرأة واحدة هي التي طرحت الرحا على خلاء بن سويد فقتلته وقيل كانت امرأة الحسن القرظي .

وعن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت (لم يقتل من نسائهم الا امرأة واحدة . والله انها لعندي تحدث وتضحك ظهرا وبطنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقتل رجالها فى السوق اذ هتف هاتف باسمها أين فلانة ؟ قالت أنا والله . قلت لها ويلك مالك ؟ قالت أقتل . قلت ولم ؟ قالت لحدث أحدثته فانطلق بها فضربت عنقها .)

فكانت عائشة تقول (فوالله ما أنسى عجبا منها طيب نفسها وكثرة ضحكها وقد عرفت أنها تقتل .)

وقد كان ثابت بن قيس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أتى الزبير بن باطا القرظي (من يهود بنى قريظة) وكان الزبير قد من على ثابت بن قيس فى الجاهلية يوم بعث (كما قدمنا) فجاءه ثابت وهو شيخ كبير فقال للزبير (يا أبا عبد الرحمن هل تعرفنى) فقال الزبير (وهل يجهل مثلى مثلك) فقال له ثابت (انى قد أردت أن أجزيك بيدك عندي) ثم أتى ثابت بن قيس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله انه كانت للزبير على منة وقد أحببت أن أجزيه بها فهب لى دمه) .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (هو لك) فأثاه فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وهب لى دمك فهو لك . فقال الزبير (شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة) فأتى ثابت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بأبى أنت وأمى يا رسول الله هبلى امرأته وولده . قال : (هم لك)

فأتاه فقال (قد وهب لى رسول الله صلى الله عليه وسلم أهلك وولدك فهم لك) قال (أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك) .

فأتى ثابت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله ماله ، فقال له (هو لك) فأتاه ثابت فقال قد أعطانى رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك فهو لك . قال (أى ثابت) ما فعل الذى كان وجهه مرآة صينية يترائى فيها عذارى الحى كعب بن أسد قال (قتل) قال فما فعل سيد الحاضر والبادى حبيب بن أخطب (قال (قتل) قال فما فعل مقدمتنا اذا شددنا وحاميتنا اذا فررنا تمزال بن سموال قال (قتل) قال (بنو كعب بن قريظة وبنو عمرو بن قريظة قال (ذهبوا وقتلوا) قال (فانى أسألك يا ثابت ييدى بحق (بميلى ومنتى) عندك الا ألحقتمونى بالقوم . فوالله ما العيش بعد هؤلاء من خير فما أنا بصابر لله قتله ولو ناضح (قليلا) حتىلقى الأجرة فقدمه ثابت فضرب عنقه .

فلما بلغ أبا بكر الصديق قوله ألقى الأجرة قال (يلقاهم والله فى نار جهنم خالدا فيها مخلدا) .

الذين أسلموا وأوفوا وعفى عنهم

قال ابن اسحق ثم ان ثعلبة بن سعية واسيد بن سعية واسد بن عبيد وهم نفر من بنى بهدل ليسوا من بنى قريظة ولا النضير نسبهم فوق ذلك هم بنو عم القوم أسلموا تلك الليلة التى نزلت فيها قريظة على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وخرج فى تلك الليلة عمرو بن سعدى القرظى فمر بحرس رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه محمد بن مسلمة تلك الليلة وكان عمرو قد أبى مع بنى قريظة فى غدرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وقال (لا أغدر بمحمد أبدا) فقال محمد بن مسلمة حين عرفه (اللهم لا تحرمنى اقالة عثرات الكرام) ثم خلى سبيله .

فخرج على وجهه حتى بات فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة تلك الليلة فلم يدر أين توجه من الأرض الى يومه هذا .

فذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم شأنه فقال : (ذاك رجل نجاه الله بوفائه والله أعلم .

وعن عطية القرظى انه قال (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر أن يقتل من بنى قريظة كل من أنبت منهم) (يعنى نبت الشعر فى عاتقه) وكنت غلاما فوجدنى لم أنبت فخلوا سبيلى) .

كما أن سلمى بنت قيس وكانت إحدى خالات رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلت معه القبلتين وبايعته بيعة النساء سألته رفاعه بن سموال القرظى وكان رجلا قد بلغ فلاذ بها . وكان يعرفهم من قبل ذلك فقالت يا نبى الله بأبى أنت وأمى هب لى رفاعه . فانه زعم أنه سيصلى ويأكل لحم الجمل فوهبه لها فاستحيته (أى حفظت له حياته من القتل يومها) .

وقد نزلت سورة الأحزاب وفيها ذكر الخندق وبنى قريظة وقال الله فيها (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا . وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم) (حصونهم) وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شىء قديرا) (الآيات ٢٥ وما بعدها) .

مطابقة ما كان من أمر بنى قريظة لحكم الله

مما تقدم بين أن بنى قريظة بغدروهم قد تقضوا عهدهم وصاروا من الحريين . فهم قد غدروا بالنبى صلى الله عليه وسلم وساهموا فى القتال مع الأحزاب بعد أن كذبوا عليه وأخبروهم أن الوثنية خير من الاسلام وفسقوا فى العداوة وأصرروا عليها .

والاستنزال هو بمكان قبول التحكيم . فهم قد قبلوا حكم من طلبوا النزول على حكمه وهو سعد بن معاذ . وكان سعد رجلا عدلا عاقلا مسلما فهو مستجمع لشروط التحكيم .

وقد اجتمعت المذاهب على أنه يجوز النزول على حكم معد يتفق على استنزاله اذا كان مسلما وكان جامعا لهذه الشروط وقيل ان ذلك ليس نزولا على حكم الله لأن حكم الله في ذلك لم يعلم . وانما نزل اليهود على حكم النبي صلى الله عليه وسلم وهو عهد الى سعد فيه .

وقيل — ونراه الأصح — ان المسلم لا يحكم الا بما طابق حكم الله فلا ضير له أن يحكم بغيره وأنه قد علم حكم الله من اقرار النبي صلى الله عليه وسلم لما حكم به سعد بن معاذ — وهذا الحكم ما يجوز في الأسرى بصفة عامة وهو أن تقتل الرجال من المقاتلين وتؤسر النساء وتغتتم الأموال وذلك اذا لم ير الامام منا أو فداء عند من يجيز ذلك (وهم غير الحنفية) أما وقد فوض الامام الأمر الى من استنزله فانه قد فوضه في هذا الخيار ان شاء انزله وان شاء لم ينزله على أن لا يخرج فيما يحكم به عن أصل ما هو جائز للامام وما هو مقيد به . فلا يحكم الا بالجائز في الأسرى فلا يجوز أن يخرج الى الحكم باجراء صلح مشروط أو الاذن بتطبيق غير أحكام الاسلام في بلد الاسلام أو غير ذلك مما لا يجوز شرعا .

وقال الامام الكاساني (١) :

« فان كان الاستنزال على حكم رجل معين فنزلوا على حكمه فحكم عليهم بشيء مما ذكرنا وهو رجل عاقل مسلم عدل غير محدود في قذف ، جاز بالاجماع لما روى أن بنى قريظة لما حاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين ليلة استنزلوا على حكم سعد بن معاذ فحكم سعد أن تقتل رجالهم وتقسم أموالهم وتسبى نساؤهم وذرايرهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبعة أرقعة فقد استصوب الرسول حكمه ، حيث أخبر عليه الصلاة والسلام أن ما حكم به حكم الله سبحانه وتعالى ، لأن حكمه سبحانه وتعالى لا يكون

(١) وهو من الأئمة الحنفية — كتاب بدائع الصنائع الجزء السابع صفحة ١٠٨ ولا خلاف فيه في المذاهب . انظر المذهب للشيرازي (شافعي الجزء الثاني صفحة ٢٣٨ ومواهب الجليل للحطاب (مالكي) الجزء الثالث صفحة ٣٦٠ والمحرد (حنبلي) الجزء الثاني صفحة ١٦٠ والروضة البهية (شيعية أمامية) الجزء الاول صفحة ٢٢٦ وشرح النيل لاباضية خوارج (الجزء السابع صفحة ٤٢٤ .

الا صوابا ، وليس للحاكم أن يحكم بردهم الى دار الحرب لما بينا ، لأنهم
بالرد يصيرون جريين لنا » .

نتائج غزوة بنى قريظة

قال ولفستون (١) : « ومهما يكن من شيء فلقد قضت هذه الغزوة
على بطون اليهود في يثرب ، وكان القضاء على اليهود هو رائد الأوس
والخزرج منذ الساعة الأولى لجاورتهم في يثرب ، وقد بذلت في هذا
السبيل جهود عظيمة في فترات مختلفة ولم توفق ، حتى جاءت الحوادث
بعد الهجرة فحققت آمالهم وأطماعهم السياسية في وقت كانت خامدة فيه
تلك الآمال ، أما المنافقون فقد خفتت أصواتهم بعد يوم قريظة ولم نسمع
لهم أعمالا أو أقوالا تناقض ارادة النبي وأصحابه كما كان يفهم من قبل » .
ويرى ولفستون هنا أن الأوس والخزرج ظلوا على حقدهم لليهود
لم يغير الاسلام طباعهم وهو أمر لا نراه صحيحا .

فضلا عن أن سياق الحوادث دل على غير ذلك ، لأن الخزرج لم
تشارك في الحكم على بنى قريظة ، وأما الأوس فقد أكثرت الشفاعة فيهم
لدى سعد بن معاذ ، ولقد استقل سعد برأيه فيهم حتى اشترط على رسول
الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين أن ينفذ حكمه قبل أن ينطق به .

وليس صحيح ما قرره من أن هذه الغزوة قضت على المنافقين ، فإن
عبد الله بن أبي كما أسلفنا لم يكف من أعماله ، وأنشئ مسجد الضرار بعد
هذه الغزوة وتخلف المنافقون في غزوة مؤتة .

ثم ان اليهود رجعوا الى المدينة بعد أن وضعت العداوة أوزارها
وأحسن النبي صلى الله عليه وسلم الى اليهود في النهاية وصفح عنهم بعد
أن كسرت شوكتهم . فقد جاءت أخبار تفيد أن يهودا كانوا بالمدينة بعد
ذلك .

(١) كتابه السابق الذكر صفحة ١٥٢ وما بعدها .

الفصل التاسع

غزوة خيبر

لم يكن أمام النبي صلى الله عليه وسلم في « الجزيرة » في الواقع من الأمر ، من أعداء أقوى من قريش من ناحية واليهود من ناحية أخرى . أما سائر القبائل فهي متفرقة وكان يكفيها أن تعلم أن جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم قاصد إليها حتى تفرق وترتعد ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ونصرت بالرعب على مسيرة شهر » ، صحيح .

وكانت المدينة في الوسط ما بين مكة جنوبا وتجمعات اليهود في خيبر وما حولها كفدك ووادي القرى وغيرها شمالا .

وكان من المتعذر على النبي صلى الله عليه وسلم أن يواجه الجبهتين في آن واحد ، وبخاصة بعد أن مارس خطورة الموقف في غزوة الخندق لما تحزبت عليه القبائل وغدرت به بنو قريظة ولولا أن من الله عليه ورد هذه القوات دون أن ينالوا منه شيئا لواجه موقفا ليس بالسهل ولا بالأمون .

ولقد قيل ان النبي صلى الله عليه وسلم بلغ قمة التخطيط الدبلوماسي والعبقرية في الحديبية وهادئها رغم معارضة المسلمين ورغم ما أبداه المشركون يومها من المخاشنة . قبلها النبي صلى الله عليه وسلم بسعة صدر لم ير لها الصحابة مبررا . وحتى قبل عليه الصلاة والسلام ألا يجير المستضعفين من المسلمين ولجأ اليه أبو جندل عند توقيع الصلح فلم يجره وكان ذلك غما على المسلمين .

وقال الفقيه ابن شهاب الزهري وغيره ان الله فتح على المسلمين بصلح الحديبية أكثر مما فتح الله عليهم به من أى غزو آخر بدليل أن النبي صلى

الله عليه وسلم رجع الى مكة عام الفتح بعشرة آلاف ولم تكن عدته من قبل لتزيد على الثلاثة آلاف بحال ، وهذا صحيح .

وعلمه بأنه لما هادن قريشا لم يجد العرب حرجا أن يدخلوا الاسلام فان ذلك لا يغيظ قريشا ولا يعتبر تحديا لها ، لأنه لا ينطوى على تهديد عند الحرب .

كما أنه لما وجدت قريش أن الاسلام يمجّد الكعبة وأنه يتخذها قبلة وأنه حريص على الحج والعمرة اطمأنت على أن الاسلام لن يهدد مركزها التجارى والسياسى بل يحتفظ لها بالحجاج والعمار فتعمر أسواقها .

وعلى أية حال ان هو الا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ، وكان ذلك من توفيق الله لرسوله صلى الله عليه وسلم .

ولما رجع النبى صلى الله عليه وسلم فى ذى الحجة من السنة السادسة من الهجرة من الحديبية قام فورا الى خيبر فى المحرم من السنة السابعة وغزاها .

وقيل : كان من عادة المسلمين أن يوقعوا الرعب فى قلوب أعدائهم قبل الغزوة . ولذلك قيل : أرسل النبى صلى الله عليه وسلم من يقتل سلام بن أبى الحقيق قبل خير ليوقع الرعب فى قلوب اليهود ، والله أعلم . كما أن قريشا كانت تعول على عداوة اليهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم وموقفهم من خير أشد التعويل ، حتى يجدوا الحليف اذا هجموا ، وحتى يظلوا على مناوشتهم ، ولذلك فجعوا فى هزيمتهم أشد الفجعة ، وكان لذلك أثره عليهم فى هزيمتهم يوم الفتح .

مقتل سلام بن أبى الحقيق

قال ابن اسحاق (١) : ولما انقضى شأن الخندق وأمر بنى قريظة ، استأذنت الخزرج فى قتل سلام بن أبى الحقيق ، وكان ممن حُزب

(١) سيرة ابن هشام المجلد الثالث صفحة ٢٢٦ وما بعدها .

الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأذن لهم . وكانت الأوس قبل أحد قد قتلت كعب بن الأشرف في عداوته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتحريضه عليه .

وكان هذان الحيان من الأنصار — الأوس والخزرج — يتصاولان (يتباريان) مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تصاول الفحلين ، لا تصنع الأوس شيئا فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم غناء « منفعة » الا قالت الخزرج « والله لا تذهبون بهذه فضلا علينا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في الاسلام » ، فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها ، فاذا فعلت الخزرج شيئا قالت الأوس مثل ذلك .

قال : ولما أصابت الأوس كعب بن الأشرف في عداوته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت الخزرج : « والله لا تذهبون بها فضلا علينا أبدا » فتذكروا « من عدو لرسول الله صلى الله عليه وسلم كعداوة ابن الأشرف ؟ » فذكروا ابن أبي الحقيق وهو بخير .

فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتله فأذن لهم . فخرج اليه من الخزرج من بنى سلمة خمسة نفر : عبد الله بن عتيك ، ومسعود بن سنان ، وعبد الله بن أنيس ، وأبو قتادة الحارث بن ربيع ، وخزاعي بن أسود حليف لهم من قبيلة أسلم فخرجوا وأمر عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عتيك .

ونهاهم عن أن يقتلوا وليدا أو امرأة .

فخرجوا حتى اذا قدموا خيبر أتوا دار أمين بن أبي الحقيق ليلا . فلم يدعوا بيتا في الدار الا أغلقوه على أهله ، أى أن الدار كانت تتضمن بيوتا ولعلها لمزارعين أو لمن يلوذ به من الأهل ونحوهم .

وكان في علية له (غرفة عالية) اليها عجلة (يعنى يصعد اليها بسلم هو جذع نخلة تنقر عليه درجات ويصعدون عليه الى الغرف العالية) .

فأسندوا (صعدوا) منها حتى قاموا على بابه .

فاستأذنوا عليه .

فخرجت اليهم امرأته فقالت : « من أنتم ؟ » .

قالوا : « ناس من العرب نلتمس الطعام » .

قالت : « ذاكم صاحبكم فادخلوا عليه » .

قال (١) : « فلما دخلنا عليه أغلقنا عليه وعلينا الحجرة تخوفا أن تكون

دونه مجادلة « مناورة » تحول بيننا وبينه .

فصاحت امرأته ففوت بنا (فضحتهم) وابتدراها وهو على فراشه

بأسيافنا ، فوالله ما يدلنا عليه في سواد الليل الا بياضه كأنه قبطية (ثوب

مصرى أبيض) ملقاة .

ولما صاحبت بنا امرأته جعل الرجل منا يرفع عليها سيفه ثم يذكر نهى

رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكيف يده .

ولولا ذلك لفرغنا منها بليل .

فلما ضربناه بأسيافنا تحامل عليه عبد الله بن أنيس بسيف في بطنه

حتى أنقذه وهو يقول : « قطنى قطنى » أى حسبى حسبى .

وخرجنا وكان عبد الله بن عتيك رجلا سيء البصر فوقع من الدرجة

فوئت (أصيبت) يده أو جلده وثنا شديدا ، وحملناه حتى نأتى منهرا

(مجرى) للماء من عيونهم فندخل فيه .

فأوقدنا النيران واشتدوا في كل وجهة يطلبوننا حتى اذا يئسوا

رجعوا الى صاحبهم فاكتنفوه « أحاطوا به » وهو يقضى « يموت » بينهم .

فقلنا : كيف لنا أن نعلم أن عدو الله قد مات ؟

فقال لنا رجل منا : « أنا أذهب فأنظر لكم » .

فانطلق حتى وصل في الناس قال : فوجدت امرأته ورجال يهود

حواله وفي يدها مصباح تنظر في وجهه وتحدثهم وتقول : « أما والله لقد

سمعت صوت ابن عتيك ثم أكذبت نفسى » .

(١) لم يذكر ابن هشام القائل وواضح أنه أحد الجعاعة لوقد يكون مسعود بن سنان أو
أبا قتادة الحرث بن زبيبي والآخر لأن له روايات .

قلت : « أنى ابن عتيك بهذه البلاد ؟ » .

ثم أقبلت عليه — على زوجها — تنظر في وجهه ثم قالت : « فاذ مات)واله يهود « .

قال : فما سمعت من كلمة كانت ألد الى تقصى منها . ثم جاءنا فأخبرنا الخبر .

فاحتملنا صاحبنا فقدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرناه بقتل عدو الله ، واختلفنا عنده فى قتله كلنا يدعيه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هاتوا أسيافكم » .

فجئناه بها ، فنظر اليها فقال لسيف عبد الله بن أنيس : « هذا قتله ، أرى فيه أثر الطعام » .

فتح خيبر

قال ابن اسحاق : وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى يهود خيبر (أقول وذلك فى أوائل عهده بالمدينة) يسألهم الاسلام (١) .

وقال ابن اسحاق (٢) : أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة حين رجع من الحديبية فى ذى الحجة وبعض المحرم ، ثم خرج فى بقية المحرم الى خيبر ودفع الراية الى على بن أبى طالب رضى الله عنه وكانت بيضاء .

ولما أشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم على خيبر قال لأصحابه : « قفوا » .

(١) « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب موسى واخيه والمصدق لما جاء به موسى الا أن الله قد نال لكم يامشرك أنتورا وانكم لجدون ذلك فى كتابكم » محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطة فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع لينبط بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » وانى أنشدكم بالله وأنشدكم بما أنزل عليكم وأنشدكم بالذى أطمع من كان قبلكم من أسباطكم أئمن والسلوى وأنشدكم بالذى أطمع البحر لأبائكم حتى أنجاكم من آل فرعون وعمله الا أخبرتموني هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد فان كنتم لاتجدون ذلك فى كتابكم فلا كره عليكم فقد تبين الرشد من الهمى فادعوك الى الله والى نبيه »

(٢) سيرة ابن هشام المجلد الثالث صفحة ٢٨٣ وما بعدها .

ثم قال : « اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما ذرين ، فانا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها ، أقدموا باسم الله » .

قيل : وكان يقولها عليه الصلاة والسلام لكل قرية دخلها .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا غزا قوما لم يغر عليهم حتى يصبح ، فان سمع أذانا أمسك ، وان لم يسمع أذانا أغار .

قال أنس بن مالك : فنزلنا خيبر ليلا فبات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اذا أصبح لم يسمع أذانا فركب وركبنا معه ، فركبت خلف أبي طلحة وان قدمي (أو فخذى) لتمس قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم (أو فخذ) واستقبلنا عمال خيبر غادين (ذاهبين صباحا) قد خرجوا بمساحيهم (فؤوسهم) ومكاتلهم (مقاطفهم وزنايلهم) ، فلما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والجيش قالوا : محمد والخميس (والجيش) معه فادبروا هربا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الله أكبر خربت خيبر ، انا اذا نزلنا ساحة قوم فساء صباح المنذرين » .
(صحيح) .

وكان شعار المسلمين يومها : « يا منصور امت امت » .

وتدنى (أى أخذ الأقرب فالأقرب) رسول الله صلى الله عليه وسلم الأموال يأخذها مالا مالا ، ويفتحها حصنا حصنا .

فكان أول حصونهم افتتح حصن ناعم وقتل محمود بن مسلمة فقد ألقيت عليه منه راحة فقتلته .

ثم القموحى حصن بن أبى الحقيق ، وأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه صفة بنت حبي بن أخطب وحصن الصعب بن معاذ وكان أغناها وأكثرها خيرا .

روى أن بنى سهم من أسالم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ، لقد جهدنا وما بأيدينا من شيء ، فلم يجدوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا يعطيهم إياه ، فقال : « اللهم انك قد عرفت حالهم وان ليست بهم قوة وان ليس بيدي شيء أعطيهم إياه ، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناء وأكثرها طعاما وودكا » . فغدا الناس ففتح الله عز وجل عليهم حصن الصعب بن معاذ .

ولما كانوا ببعض الحصون خرج مرحب اليهودى وهو من حمير قد جبع سلاحه يرتجز وهو يقول :

قد علمت خبير أنى مرحب	شاكى السلاح بطل مجرب
أطعن أحيانا وحيناً أضرب	إذا الليوث أقبلت تحرب
ان حماى للحمى لا يقرب	يحجم عن صولتى المجرب
فأجابه كعب بن مالك فقال :	

قد علمت خبير أنى كعب	مفرج الغما جرىء صلب
إذا شبت الحرب تلتها الحرب	معى حسام كالعقبن غضب
نظؤكم حتى يذل الصعب	نعطى الجزاء أو يفىء النهب
بكف ماض ليس فيه عتب	

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لهذا ؟ » .
قال محمد بن مسلمة : أنا له يارسول الله ، أنا الموتور الشائر ، قتل أخى بالأمس .

فقال : « فقم اليه ، اللهم أعنه عليه » .

فلما دنا أحدهما من صاحبه دخلت بينهما شجرة عمرية (عتيقة من شجر العشر ، وهو شجر له صمغ) فجعل أحدهما يلوذ بها من صاحبه كلما لاذ بها منه اقتطع صاحبه بسيفه ما دونه منها ، حتى برز كل واحد منهما لصاحبه وصارت بينهما كالرجل القائم ما فيها فنن (غصن) .

ثم حمل مرحب على محمد بن مسلمة فضربه فائقاه بدرقه (الترس) فوقع سيفه فيها ، فعضت به فأمسكته وضربه محمد بن مسلمة حتى قتله .

وقد أفاض مؤرخو اليهود في ذكر هذه المبارزة وأشادوا ببطولة
مرحب فيها وانها تذكر بمبارزات جبايرة الأبطال في الملاحم والأساطير .

ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر ينشد المبارزة فخرج اليه الزبير بن
العوام فقالت أمه صفية بنت عبد المطلب : يقتل ابني يارسول الله ؟

قال : « بل ابنك يقتله ان شاء الله » .

فقتله الزبير ، وقيل للزبير : والله ان سيفك كان يومئذ صارما عضبا .

قال : والله ما كان صارما ولكني أكرهته (أى جعلته كذلك) .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضى الله عنه
برايته الى بعض حصون خيبر فقاتل ، فرجع ولم يك فتح وقد جهد
(ناله التعب) .

ثم بعث الغد عمر بن الخطاب فقاتل ثم رجع ولم يك فتح وقد
جهد .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأعطين الراية غدا رجلا
يحب الله ورسوله ، يفتح الله على يديه ، ليس بفرار » .

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا رضوان الله عليه وهو أرمد
(موجوع العينين) فتفل في عينه ثم قال : « خذ هذه الراية فامض بها
حتى يفتح الله عليك » .

قال مسلمة بن الأكوع : فخرج والله بها يأنح (يزحر ويتألم من ثقل
المرض) يهرول هرولة (يمشى دون الجرى) وانا لخلفه تتبع أثره حتى ركز
رايته في رضم من حجارة تحت الحصن .

قال : أنا على بن أبى طالب .

فاطلع اليه (أطل عليه) يهودى من رأس الحصن فقال : من أنت ؟

قال : أنا على بن أبى طالب .

قال اليهودى : علوتم (أى سترفعون) وما أنزل على موسى (يعنى
أنه يقسم بذلك ان المسلمين سينتصرون) .

فما رجع حتى فتح الله على يديه .

ولما دنا على بن أبي طالب رضى الله عنه من الحصن خرج اليه أهله فقاتلهم فضربه رجل من يهود فطرح ترسه من يده فتناول على كرم الله وجهه بابا كان عند الحصن وهو يقاتل حتى فتح الله عليه . ثم ألقاه من يده حين فرغ .

قال رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلقد رأيتنى فى نفر سبعة معى أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما قلبه .

وكان آخر حصون أهل خير افتتاحا الوطيح والسالام ، وحاصرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بضع عشرة ليلة ، حتى اذا أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسيرهم (ينفيهم) وأن يحقن دماءهم ، ففعل .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حاز الأموال كلها يعنى الأراضى والحصون الشق ونظاه والكتيبة وجميع حصونهم الا ما كان من ذينك الحصنين .

ولما فرغ النبى صلى الله عليه وسلم من خير انصرف الى وادى القرى فحاصر أهلها لىالى .

فلما سمع بهم أهل فذك قد صنعوا ما صنعوا بعثوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه أن يسيرهم (ينفيهم) وأن يحقن لهم دماءهم ويخلوا له الأموال ، ففعل .

وكان ممن مشى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهم فى ذلك محيصة بن مسعود أخو بنى الحارث .

فلما نزل أهل خير على ذلك سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعاملهم فى الأموال على النصف ، وقالوا : نحن أعلم بها منكم وأمر لها فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصف على أن اذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم . فصالحه أهل فذك على مثل ذلك .

فكانت خير فيئا بين المسلمين ، وكانت فذك خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب .

وقع الخبر على قریش

قال ابن اسحاق (١) :

ولما افتتحت خيبر كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم الحجاج بن علاط ، فقال : يا رسول الله ان لى بمكة مالا عند صاحبتى (زوجته) أم شيبه بنت أبى طلحة وما لا متفرقا فى تجار أهل مكة ، فأذن لى يا رسول الله ، فأذن له .

قال الحجاج : فخرجت حتى اذا قدمت مكة وجدت بشية البيضاء (مكان) رجالا من قریش يستمعون الأخبار ويسألون عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد بلغهم أنه سار الى خيبر ، وقد عرفوا أنها قرية الحجاز (بلدتها الأولى) ريفا ومنعة (حصانة) ورجالا فهم يتحسسون أخبارها ويسألون الركبان .

قال : فلما رأونى ولم يكونوا علموا باسلامى ، قالوا : الحجاج بن علاط عنده والله الخبر ، أخبرنا يا أبا محمد ، فانه قد بلغنا أن القاطع قد سار الى خيبر وهى بلد يهود وريف الحجاز .

قلت: قد بلغنى ذلك وعندى من الخبر مايسركم ، فالتبطوا (تزاحموا) بجنبى ناقتى يقولون : ايه يا حجاج .

قلت : هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط ، وقتل أصحابه قتلا لم تسمعوا بمثله قط ، وأسر محمد أسرا وقالوا لا نقتله حتى نبعث به الى أهل مكة فيقتلوه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم .

فقاموا وصاحوا بمكة وقالوا : جاءكم الخبر وهذا محمد انما نتظرون أن يقدم به عليكم فيقتل بين أظهركم .

قلت : أعينونى على جمع مالى بمكة وعلى غرمائى فانى أريد أن أقدم خير فأصيب من قتل محمد وأصحابه قبل أن يسبقنى التجار الى ما هناك . فقاموا فجمعوا لى مالى كأحسن جمع سمعت به .

(١) سيرة ابن هشام المجلد الثالث صفحة ٢٩٩ .

فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر وجاءه عنى أقبل حتى وقف الى جنبى وأنا فى خيمة من خيام التجار .

فقال : يا حجاج ، ما هذا الخبر الذى جئت به ؟
فقلت : وهل عندك حفظ لما وضعت عندك (أى تكتم السر اذا قلت لك) .

قال : نعم .

قلت : فاستأخر عنى حتى ألقاك على خلاء فانى فى جمع مالى كما ترى فانصرف عنى حتى أفرغ .

قال : حتى اذا فرغت من جمع كل شىء كان لى بمكة ، وأجمعت الخروج ، لقيت العباس فقلت : احفظ على حديثى يا أبا الفضل ، فانى أخشى الطلب (المطاردة) ثلاثا (ثلاثة أيام) ثم قل ما شئت .
قال : افعل .

قلت : فانى والله تركت ابن أخيك عروسا على بنت ملكهم (يعنى صفية بنت حى) ولقد افتتح خير وانتل (استخرج) ما فيها وصارت له ولأصحابه .

فقال : ما تقول يا حجاج .

قلت : اى والله فاكنتم عنى ، لقد أسلمت ما جئت الا لأخذ مالى فرقا من أن أغلب عليه ، فاذا مضت ثلاث فاطهر أمرى والله على ما تحب .
حتى اذا كان اليوم الثالث لبس العباس حلة له وتخلق وتطيب وأخذ عصاه ثم خرج حتى أتى الكعبة فطاف بها ، فلما رأوه قالوا : يا أبا الفضل هذا والله التجلد لحر المصيبة .

قال : كلا والله الذى حلقتم به لقد افتتح محمد خير وترك عروسا على بنت ملكهم ، وأحرز أموالهم وما فيها فأصبحت له ولأصحابه .
قالوا : من جاءك بهذا الخبر ؟

قال : الذى جاءكم بما جاءكم به ، ولقد دخل عليكم مسلما فأخذ ماله فانطلق به ليلحق بمحمد وأصحابه فيكون معه .

قالوا : يا لعباد الله ، انقلت عدو الله أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن .
ثم لم ينشبوا (يلبثوا) أن جاءهم الخبر بذلك .

الفصل العاشر

سِلمٌ وإحسان

« وان عدتم عدنا »

لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم خير وما حولها تمت هزيمة اليهود نهائيا واصبحوا فلولاً وحطاماً لا قوام لها . بذل رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم يد الاحسان ووضع عنهم سيف النعمة وأوصل بينه وبينهم الأسباب وأغضى عما بدا منهم بين الفينة والأخرى .

والواقع ان هذه السياسة كان لها ما يبررها وقتها فهي تؤدي الى غسل الجراح وتطبيخها وازالة الاحقاد فيبعد احتمال الفتن والاضطرابات .

وهي دلالة الحاكم القوى المتثبت من نظامه الذى يثق بأن أعداءه قد باتوا على خوف من شوكته بعد ان لقنهم دروس الهيبة . فيكون لاحسانه اليهم أجمل الوقع في نفوسهم ويعيدهم الى جادة الحياة ويقلل عثرتهم .

ولكن ، اذا عادوا الى الافساد ، كان لنا أن نعود الى درئه وردده عليهم ، قال الله تعالى : « وان عدتم عدنا » ، وانا لنجد الاقرار بهذا الاحسان من مؤرخى اليهود انفسهم فقد قال ولستون (١) ان « النبی عامل اليهود بالتسامح بعد خير واوصى معاذ بن جبل الا يفتن اليهود عن يهوديتهم . وعلى هذا النحو عومل يهود البحرين اذ لم يكلفوا الا دفع الجزية وبقوا متمسكين بيهوديتهم » وأحال في ذلك الى ما نقله عن البلاذرى .

وانا لنجد دلالة احسانه صلى الله عليه وسلم لليهود من أمور شتى منها زواجه بأم المؤمنين السيدة صفية بنت حبي رضى الله عنها وأرضاها واغضاؤه

(١) كتابه السابق صفحة ١٧٧ .

عن امرأة وضعت له السم في شاة أهدها اليه ودفعه الدية عن يهود اتهموا
فى قتل أحد الأنصار وكتابه لبعض الأسر اليهودية عهدا تميزهم . ولم يجد
منه شأن مع اليهود بعد ذلك حتى مات . وكان من آخر ما تكلم به قبل موته
وصيته بأهل الذمة فقال :

« احفظونى فى ذمتى » .

ولقد قيل ان احسانه لليهود كان نتيجة لزواجه من أم المؤمنين صفية
بنت حبي وروج مؤرخو اليهود لذلك ولكن الواقع ان زواجه منها كان
جزءا من احسانه الى بنى جنسها .

فان صفية لم تكن الأثرية الأولى عنده صلى الله عليه وسلم ولم يكن
لها عليه تأثير واضح حتى تتعدل سياسته بسببها .

بل ظلت عائشة رضى الله عنها أحب نساءه حتى اتقل صلى الله عليه
وسلم الى الرفيق الأعلى .

وانما تطلب الوقت بعد طول الحرب وقد تم له النصر عليهم وزالت
شوكتهم وقتل ابطالهم ومعانيدهم وتجردوا من اموالهم ونزحت بطون منهم
خارج الجزيرة وتطهرت المدينة منهم أن يسكن جراحهم ويمسح على
أحزانهم ويعيد بذلك بناء الصدع ويجبر الكسر وان كان صلى الله عليه
وسلم قد رأى الا يقوم دينان فى الجزيرة فانهم ما داموا فقد وجب ان يقيموا
على سلام ووئام فذلك شعار الاسلام .

ولم تكن هذه سياسته صلى الله عليه وسلم مع يهود وحدهم حتى
يزعموا أنها لأجل صفية بل كان ذلك أمره مع قريش وغيرهم لما دنوا لهم
وجنحوا الى السلم وكذلك أمر الله اليه (فى الأنفال الآية ٦١) .

ونجد أن فى سورة المائدة . وهى من أواخر ما نزل من القرآن —
توثيقا للصلات بين المسلمين وأهل الكتاب ومنهم اليهود — ما داموا غير
ناقضين للعهد فى قوله تعالى : (اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا
الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من
الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) . (الآية ٥) وفيها يوصيه صلى الله عليه

وسلم بانعفو والصفح عن بنى اسرائيل مع ما هم عليه من سيئة فى قوله :
 (فيما تقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين) .
 (الآية ١٣) .

زواجه صلى الله عليه وسلم من أم المؤمنين صفية

قال ابن اسحق ولما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم القموص حصن بنى ابي الحقيق ، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفية ابنة حبي ابن أخطب ، وبأخرى معها وكانت من السبايا وبنتى عم لها ، فاصطفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه وكان دحية بن خليفة الكلبي قد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما اصطفاه لنفسه اعطاه ابنتى عمها وفشت السبايا فى المسلمين وأوصاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الا يأتوا الحبالى من السبايا حتى يستبرئوهن وقال : « لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماءه زرع غيره . أو كما قال :

ولما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفية والتي معها مر بهما بلال وهو الذى جاء بهما على قتلى من قتلى يهود . فلما رأتهما التى مع صفية صاحت وصكت وجهها وحشت التراب على رأسها .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفية فحيزت خلفه والقى عليها رداءه فعرف المسلمون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اصطفاه لنفسه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبلال حين رأى ما بتلك اليهودية « أنزعت منك الرحمة يا بلال حتى تمر بامرأتين على قتلى رجالهما » .

وكانت صفية قد رأت فى المنام — وهى عروس بكنانة بن الربيع بن ابي الحقيق ان قمرا وقع فى حجرها ، فعرضت رؤياها على زوجها فقال :
 (ما هذا الا انك تحنين لملك الحجاز محمد) .

فلطم وجهها لطمه خضر عينها منها .

فأتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وبها أثر منه فسألها ما هو فأخبرته هذا الخبر .

ولما عرس رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفية بخير أو ببعض الطريق ، كانت التي جمعتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومشطتها وأصلحت من أمرها أم سليم ابنة ملحان أم أنس بن مالك . فبات بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبة له . وبات أبو أيوب خالد بن زيد أخو بني النجار متوشحاً سيفه يحرس رسول الله صلى الله عليه وسلم ويطوف بالقبة حتى أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأى مكانه قال : (مالك يا أبا أيوب ؟) قال : (يا رسول الله خفت عليك من هذه المرأة وكانت امرأة قد قتلت أباهاً وزوجها وقومها وكانت حديثة عهد بكفر فخفتها عليك) فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني) قيل وتلك الليلة هي التي فاتته في صباحها صلاة الصبح .

فعن سعيد بن المسيب قال : انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من خير ، فكان ببعض الطريق ، قال من آخر الليل : « من رجل يحفظ علينا الفجر لعلنا ننام ؟ »

قال بلال : أنا يا رسول الله أحفظه عليك .

فنزّل رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل الناس فناموا ، وقام بلال يصلي ، فصلّى ما شاء الله عز وجل أن يصلي ، ثم استند الى بغير واستقبل الفجر يرفعه فغلبته عينه فنام ، فلم يوقظهم الا مس الشمس ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول أصحابه هب . فقال : « ماذا صنعت بنا يا بلال ؟ » .

قال : يا رسول الله ، أخذ بنفسى الذى أخذ بنفسك .

قال عليه الصلاة والسلام : « صدقت » .

ثم اقتاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بغيره غير كثير ثم آتاه فتوضأ وتوضأ الناس ثم أمر بلالاً فأقام الصلاة فصلّى رسول الله صلى الله

عليه وسلم بالناس ، فلما سلم أقبل على الناس فقال : « اذا نسيتم الصلاة فصلوها اذا ذكرتموها ، فان الله تبارك وتعالى يقول : . وأقم الصلاة لذكرى » .

وقد أخلصت صفية رضى الله عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين بكته في مرضه الذى مات فيه وتمنت أن ما به كان بها حبا له واشفاقا عليه .

عفوه صلى الله عليه وسلم عن يهودية وضعت له السم

قال ابن اسحاق (١) : لما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم (فى مقامه عندما رجع من خير الى المدينة) أهدت له زينب ابنة الحارث امرأة سلام بن مشكم ، شاة مصلية (مشوية) وقد سألت أى عضو من الشاة أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقيل لها : الذراع . فأكرت فيها السم . ثم سمت سائر الشاة ثم جاءت بها ، فلما وضعتها بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها (يبلعها) ومعه بشر بن البراء بن معرور وقد أخذ منها كما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما بشر فأساغها ، وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلفظها ، ثم قال : « ان هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم » ، ثم دعا بها فاعترفت ، فقال : « ما حملك على ذلك ؟ » .

قالت : بلغت من قومى ما لم يخف عليك ، فقلت : ان كان ملكا استرحت منه ، وان كان نبيا فسيخبر .

فتجاوز عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ومات بشر من أكلته التى أكل .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال فى مرضه الذى توفى فيه ، وقد دخلت أم بشر بنت البراء بن معرور تَعُوْدُهُ : « يَا أُمُّ بَشْرُ ، ان

(١) سيرة ابن هشام المجلد الثالث صفحة ٢٩٣ .

هذا الأوان وجدت فيه انقطاع أبهرى (شريان بالقلب) من الأكلة التي أكلت مع أخيك بخير .

قال : فان المسلمين ليرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات شهيدا مع ما أكرمه الله به من النبوة . أقول وقد قيل في تفسير « أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » (سورة آل عمران الآية ١٤٤) انها انصرفت الى أنه مات من مرضه الذي مات فيه ، والى أنه قتل شهيدا من السم الذي دس في الشاة المسمومة .

عقوه صلى الله عليه وسلم عن سحره

روى البخارى فى باب : هل يعفى عن الذمى اذا سحر ؟ .. قال ابن وهب : أخبرنى يونس عن ابن شهاب ، سئل : أعلى من سحر من أهل العهد قتل ؟ قال : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع له ذلك ، فلم يقتل من صنعه ، وكان من أهل الكتاب .

وعن عائشة أن النبى سحر حتى كان يخيل اليه أنه صنع شيئا ولم يصنعه . وقد قدمنا أن من سحره هو لبيد بن الأعصم وهو من اليهود .

موقفه من تهمة اليهود فى قتيل :

قال ابن اسحاق (١) : أصيب عبد الله بن سهل بخير ، وكان خرج اليها فى أصحاب له يمتار منهم تمرا ، فوجد فى عين قد كسرت عنقه ثم طرح فيها فأخذوه فغيبوه (دفنوه) ثم قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له شأنه ، فتقدم اليه أخوه عبد الرحمن ومعه ابنا عمه حويصة ومحبيصة ابنا مسعود ، فذكروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قتل صاحبهم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتسمون قاتلكم (تعينوه) ثم تحلفون عليه خمسين يمينا فنسلمه اليكم » .

(١) سيرة بن هشام المجلد الثالث صفحة ٣٠٨ .

قالوا : يا رسول الله ، ما كنا لنحلف على ما لا نعلم .
قال : « أفحلفون بالله لكم خمسين يمينا ما قتلوه ولا يعلمون له قاتلا
ثم يبرءون من دمه » .

قالوا : يا رسول الله ، ما كنا لنقبل أيمان يهود على ما فيهم من الكفر
أعظم من أن يحلفوا على اثم .

أقول : وهذه هي القسامة وهي من طرق الاثبات شرعا .
قال ابن اسحاق فوداه (دفع ديته) رسول الله صلى الله عليه وسلم
من عنده (من ماله) مائة ناقة .

وجاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب الى يهود خيبر حين كلمته
الأنصار : « انه قد وجد قتيل بين أبياتكم فدوه (ادفعوا ديته) فكتبوا
اليه يحلفون بالله ما قتلوه ولا يعلمون له قاتلا . فوداه رسول الله صلى
الله عليه وسلم من عنده .

أقول : وقد وقع في المسلمين أن اليهود هم قتلته اذ قال عمر بن
الخطاب عند اجلائهم ، مع عدوهم على الأنصارى قبله : لا تشك أنهم
أصحابه ليس لنا عدو غيرهم .

كتابته صلى الله عليه وسلم لبعض اليهود

وقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم كتب لبعض اليهود عهدا تنقل
ما وصل لنا منها (١)

(١) عن كتاب ولغستون تاريخ اليهود في الجاهلية وصدر الاسلام . صفحة ١٨٠ وبطبيعة
الحال هو ليس حجة في النقل عن نبي الله صلى الله عليه وسلم « بسم الله الرحمن الرحيم
هذا كتاب من محمد رسول الله لبنى غادية أن لهم الذمة وعليهم الجزية ولا عرى ولا جلاء
الليل مد والنهار شد = .

اجلاء عمر بن الخطاب لليهود :

كانت أموال خير وأراضيهم ذات قيمة وخصب ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقوم اليهود على زراعتها لخبرتهم ، فأذن لهم في الإقامة يؤدون له نصف ثمارها وحاصلاتها على أن يكون له حق اخراجهم كما أسلفنا .

قال ابن اسحاق ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس أرض خير بعد القتال وقسمها بين المسلمين ونزل من نزل من أهلها على الجلاء بعد القتال ، فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ان شئتم دفعت اليكم هذه الأموال على أن تعلموها وتكون عمارها بيننا وبينكم وأقركم ما أقركم الله » . فقبلوا .

فكانوا على ذلك يعطونها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث عبد الله بن رواحة فيقسم ثمرها ويعدل بينهم في الخرص (التقسيم) .

فلما توفي الله نبيه صلى الله عليه وسلم أقرها أبو بكر رضي الله تعالى عنه بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بأيديهم على المعاملة التي عاملهم عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى توفي .

— كتابه لبني حبيبة (حنينة) وأهل مقنا :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله الى بني حبيبة (حنينة) وأهل مقنا : سلم انتم . فانه أنزل على انكم راجعون الى قريبتكم .

فاذا جاء كتابي هذا ، فانكم آمنون ولكم ذمة الله وذمة رسوله . وان رسول الله قد غفر لكم ذنوبكم وكل دم اتبعتم به . لاشريك لكم في قريبتكم الا رسول الله يجيركم كما يجير منه نفسه . فان لرسول الله بزيتم ورقبكم والكراع والحلقة الا ما عفا رسول الله ، او رسول رسول الله ، وان لكم من ذلك ما اخرجت نخيلكم وربح ما صادت عركم (اخشاب الصيد) وربح ما اغتزلت نساؤكم ، وانكم قد ثريتم بعد ذلك ، ورفعكم رسول الله عن كل جزية وسخرة . ان سمعتم واطعتم يكرم كريمكم ويعفوا عن مسيئكم . ومن اتهم من بني حبيبة (حنينة) وأهل مقنا من المسلمين فهو خير له . ومن اطلعهم بشر فهو شر له . وليس عليكم امير الا من انفسكم او من اهل بيت رسول الله . »

(ويقول انه رآها مع بعض أهل مصر بينها وهي من جلد احمر دارس الحظ .)

— معاهدة أهل خيبر وآل مقنا :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد رسول الله لحنينة ، ولأهل خيبر وآل مقنا وذرائعهم ما دامت السموات والأرض سلام انتم . اني احمد اليكم الله الذي لا اله الا هو = .

ثم أقرها عمر رضى الله عنه صدرا من خلافة .

ثم بلغ عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في وجعه (مرضه) الذى قبضه الله فيه : « لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان » .

فبحث عمر عن ذلك حتى بلغته الثبت (صحة السند) .

وقد روى البخارى عن ابن عباس قال : اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه فقال : « اثبتوني بكتف أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده أبدا » .. فتنازعوا ولا ينبغي عند نبى تنازع .

فقالوا : ما له أهجر ؟ استفهموه .

فقال : « ذرونى ، والذى أنا فيه خير مما تدعونى اليه » .

فأمرهم بثلاث : قال : أخرجوا المشركين من جزيرة العرب وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم ، والثالثة اما ان سكت عنها واما أن قالها فنسيها .

= اما بعد ، فانزل الوحي انكم راجعون الى قراكم وسكنى داركم ... ودونكم أموالكم ورببتكم ، وكل ما ملكت ايديكم . وليس عليكم اداء جزية . ولا تجز لكم ناحية . ولا توطأ ارضكم . ولا تجسّدون . ولا تصلون . ولا يجعل احد عليكم . ولا تمنعون من لبس المشيقات والملونات ، ولا من ركوب الخيل ولبس اصناف السلاح . ومن قاتلكم فقاتلوه . ومن قتل فى حربكم فلا يقاديه احد منكم ولا له دية . ومن قتل منكم احد المسلمين تصدا فحكمه حكم المسلمين ولا يعتدى عليه بالفحشاء . ولا تنزلونه بمنزلة اهل الذمة . وان استعنتم فتعاونوا . وان استرفدتم ترفدوا . ولا تطالبون ببضياء ولا بصفر . ولا بسمراء ولا كراع ولا حلقة . ولا تمنعون دخول المساجد . ولا تحجبون عن ولاة المسلمين . ولا يولى عليكم الا منكم او من اهل بيت رسول الله . وتكرموا لكرامتكم وكرامة صفية ابنة عمكم . وعلى اهل بيت رسول الله وعلى المسلمين ان يكرموا كريمكم ، ويتقوا عن مسيئكم . ومن سافر منكم فهو فى امان الله وامان رسوله . ولا اكراه فى الدين . ومن منكم اتبع ملة رسول الله ووصيته ، كان له ربع ما امر به رسول الله لاهل بيته تطعون عطاء قريش ، وهو خمسون دينارا ، ذلك بفضل منى عليكم . وعلى اهل بيت رسول الله وعلى المسلمين الوفاء بجميع ما فى هذا الكتاب . فمن اطلع الى حنية واهل خيبر ومثنا فهو خير له .

ومن اطلع لهم بشر فهو شر له . ومن ترا كتابى هذا او قرى عليه وغير او خالف شيئا مما به فعله لئلا الله ولمنسة اللاعنين من اللاتكة والناس اجمعين ، وهو برى من ذمتى وشفاعتى يوم القيامة . وانا كاظمه . ومن كاظمى فقد كاظمته فهو فى النار ، وكفى بالله شهيدا وبلائكته وبمن حضر من المسلمين » .

(كتبها على بن أبى طالب بخطه وامل عليه رسول الله حرفا بحرف يوم الجمعة للثلاث الاول خلت من رمضان سنة ٥ مضت من الهجرة) .

فأرسل عمر إلى يهود فقال : « ان الله عز وجل قد أذن في جلائكم ، فقد بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يجتمع بجزيرة العرب دينان ، فمن كان عنده عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليهود فليأتنى به أقضه له ، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليهود فليتجهز للجلاء » .

فأجلى عمر من لم يكن عنده عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم .

وكانت اليهود قد اعتدت على عبد الله بن عمر بن الخطاب ، قال عبد الله :

« خرجت أنا والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود إلى أموالنا بخير تعاهدها ، فلما قدمنا تفرقنا في أموالنا فمدا على تحت الليل وأنا نائم على فراشي فقدم صاحبى فأتاني فسألاني : من صنع بك هذا ؟ فقلت : لا أدري . قال : فأصلحنا من يدي ثم قدما بى على عمر رضى الله عنه ، فقال : هذا عمل يهود . ثم قام في الناس خطيبا فقال : يا أيها الناس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عاملا يهود خبير على أنا نخرجهم اذا شئنا وقد عدوا على عبد الله بن عمر ففدعوا يديه كما قد بلغكم ، مع عدوهم على الأنصارى قبله : لا نشك أنهم أصحابه ليس لنا هناك عدو غيرهم ، فمن كان له مال بخير فليلق به فانى مخرج يهود » .

فأخرجهم .

= وقد تشكك ولفستون نفسه (المرجع السابق صفحة ١٨١ فى هذا الكتاب الاخير . واستدل فى تشككه بأنه مؤرخ سنة ٥ هجرية فى وقت كان النزاع فيه مازال مستحكما بين النبى صلى الله عليه وسلم واليهود وكانت غزوة خيبر فى سنة ٧ هجرية ، وان المسلمين لم يكونوا يؤرخون بالهجرة أيام الرسول صلى الله عليه وسلم وأنه لو وجد هذا الكتاب لما امر عمر بن الخطاب بأجلاء أهل خيبر .

والواقع اننى لم اجد هذه الكتب فى موضع مما بحثت فيه غير كتاب ولفستون المذكور كما ان صيغته لا تشبه كتب النبى صلى الله عليه وسلم .

خاتمة

وبعد فهذه هى قصة النبى صلى الله عليه وسلم مع اليهود وصفحة فى عنادهم معه وجهاده فيهم وسياسته نحوهم .

ثم ان بنى اسرائيل وغيرهم من اليهود ناوؤا الاسلام بعد ذلك فى صور شتى ومواقف عديدة ليس المجال لتفصيلها الى أن أقاموا اسرائيل يصوبون منها نبالهم الى صدور العرب والمسلمين ويحيكون فيها دسائسهم ويتربصون فيها الدوائر بنا .

وحكم الاسلام فيمن يعاشنا منهم أنهم أهل ذمة أما اسرائيل فهى فى حرب معنا . وأنه لا يجوز ولا يحل عند الله ورسوله أن أرض الاسلام يستعمرها غير المسلمين ليجروا فيها أحكامهم فينصبون فيها حكومة منهم وتظل فيها أحكام غير الاسلام ويخضع فيها قلة من المسلمين لذلك . ولا يجوز أن تجرى معاهدة أو أمان على ذلك بل تعتبر الحرب قائمة حتما بين المسلمين وبين من استولوا على دار الاسلام عنوة وبدلوا أحكامها حتى يستروها لا تعلم فى ذلك خلافا بين المسلمين فيه .

وقال الامام الشافعى وغيره اذا أغار غير المسلمين على المسلمين لم يملكوا عليهم ، لأن أموال المسلمين ونفوسهم معصومة بما قضى به الدين ، فلا يبدله غير المسلمين بعدوانهم .

ومن غريب الزعم الذى يدعون به لانفسهم أن القرآن قد بشر بمولد دولتهم وأمر لهم بتلك الأرض ووعدوا اياهم .

ومن أهم ما يستندون اليه فى ذلك قوله تعالى فى سورة المائدة اذ قال موسى لقومه « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم » « الآيتين

٢٠ ، ٢١ » والآية لا تحتمل الا أنها كتبت لكم في ذلك الوقت فزعموا أنها تكون مكتوبة لهم ووقف عليهم وقد نزلت بعد ذلك شرائع الدين حتى كان الاسلام ففتحها المسلمون وملكوا بعض أراضيها عنوة وبعضها الآخر صلحا بعد الحصار والقتال .

ولم يروا في كل ذلك ما يؤثر في دعواهم وهذا من قبيل ظنهم أنهم سيغفر لهم مهما يفعلون .

وقد قال الله تعالى « ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده » .

وهذه الأرض لم تكن لهم من الأبد بل كانت لغيرهم ثم وعدهم الله اياها ان أطاعوا واتبعوا حكم الله فلما عصوا حرّمهم منها وتاهوا في الأرض أربعين سنة . ولما تابوا الى الله هداهم اليها . ثم زالت عنهم بما توارد عليها من الأمم فتحوها فاتحا بعد فاتح حتى فتحها المسلمون في عهد عمر رضى الله عنه وظلت لهم حتى الآن . ولما شرعوا في استيطانها خلال هذا القرن . لم يعترف العرب باستقرارهم فيها وهم في حرب معهم على ذلك .

ولذلك فان معنى قوله تعالى « الأرض المقدسة التى كتب الله لكم » أى في ذلك الوقت . وانما الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . ومما يستندون اليه كذلك قوله تعالى :

« وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا ، فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاجسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا . ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا . ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتهم فلها فاذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا عسى ربكم أن يرحمكم وان عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا » . (الاسراء الآية ٤ وما بعدها) .

وبالرجوع الى التفاسير المختلفة (١) فى شأن هذه الآيات الكريمة يتبين لنا أنها مليئة بالقصص المشوهة وواضح فيها أثر الاسرائيليات ولا تقوم على

(١) اطر بصفة خاصة بن جرير الطبرى الجزء الخامس عشر والعشر الرازى الجزء الخامس وابن كثير الجزء الثالث والنسفى الجزء الثانى .

فكرة ثابتة مؤكدة مقنعة مما يجعلنا نقول ان المفسرين لم يصلوا الى معناها الحقيقي ولم يقربوه .

ولنا أن نلاحظ أولا أن الخطاب فيها لبنى اسرائيل أى الى تلك السلالة الخالصة التى وجدت فى عهد موسى عليه الصلاة والسلام وكان لها كيانها فى عهد نزول القرآن ولم يوجه الى اليهود على اطلاقهم ومن المعلوم أن سكان اسرائيل الآن ليسوا بنى اسرائيل بل امتلأت من اليهود من مختلف الأصول والأجناس مما يجعلنا نرجح أن هذه الآيات الكريمة لم تنصرف الى تجمعات اليهود الكائنة الآن فى الشرق الأوسط والتى لا يمكن أن يصدق عليها وصف بنى اسرائيل .

وجماع ما ورد فى تفسير هذه الآيات أن قوله تعالى « وقضينا الى بنى اسرائيل » أى أخبرناهم وأعلمناهم قاله الطبرى والفخر الرازى وغيرهما وقال القرطبى وغيره حكمنا عليهم أو أوحينا اليهم .

وقوله تعالى لتفسدن « بضم التاء وكسر السين » قال القرطبى فيها قراءات منها بضم التاء وفتح السين ومنها بفتح السين ومنها بفتح التاء وضم السين فيكون هم محل الفساد لا الافساد وفى قوله « ولتعلن علوا كبيرا » اتفقت الآراء أى يتكبرون ويغنون ويطغون ويعتدون وفى قوله تعالى « فحاسوا خلال الديار » قال القرطبى قرئت كذلك فحاسوا والحوس والجوس بمعنى واحد وهو الطواف بالليل . وقوله « رددنا لكم الكرة » اتفق على أنه أعيد لهم صلاح حالهم . بعد الفساد الأول قيل بقتل جالوت وقيل بغيره .

وقوله « وان أسأتم فلها » قال القرطبى أيضا أى ترجع اليها الاساءة أو فلها رب يغفر الاساءة والأول أرجح وأكثر ملاسة لل مقام . وقوله « ليسوءوا وجوهكم » اتفق الرأى على أن ذلك يكون بالسبى والقتل عند الهزيمة « ويتبرأوا » أى يهدموا وقوله « عسى ربكم أن يرحمكم » قال القرطبى ان عسى من الله واجبة أى أن ربكم سيرحمكم .

وقال المفسرون ان هذه الآيات تحدث عن فساد يقع من بنى اسرائيل مرتين فيسلط عليهم عباد الله ياكلون بهم . وقال ابن كثير « اختلف المفسرون

فى هؤلاء المسلمين عليهم فمن ابن عباس وقتادة أنهم جالوت الجزرى (البقرة الآيات ٢٤٦ وما بعدها) سلطه الله عليهم أولا ثم ظهوروا عليه بعد ذلك وقتل داود جالوت . وعن سعيد بن جبير انه ملك الموصل سنحاريب وجنوده وغيره يختصر ملك بابل قال وروى ابن جرير (أى الطبرى) فى هذا المكان حديث أسنده الى حذيفة مرفوعا الى النبى صلى الله عليه وسلم مطولا وهو حديث موضوع لامحالة لا يسترىب فى ذلك من له أدنى معرفة بالحديث وقال المزى موضوع مكذوب وقد وردت فى هذا اثارة كثيرة اسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها لان منها ما هو موضوع وضع زنادقة ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحا ونحن فى غنى عنها .

وقال الفخر الرازى « اختلف فى هؤلاء العباد قيل ان بنى اسرائيل تعظموا وتكبروا واستحلوا المحارم وقتلوا الأنبياء وسفكوا الدماء وذلك أول الفساد فسلط الله عليهم يختصر الى أن قبض الله ملكا آخر غزا أهل بابل واتفق أن تزوج امرأة من بنى اسرائيل فطلبت تلك المرأة من ذلك الملك أن يرد بنى اسرائيل الى بيت المقدس ففعل ثم قامت الانبياء فيهم ورجعوا الى أحسن ما كانوا فهو قوله تعالى « رددنا لكم الكرة » والقول الثانى « سلط عليهم جالوت حتى أهلكتهم وأبادهم ثم قوى طالوت حتى نصر داود فذاك هو عود الكرة » .

وقال القرطبى ان المرة الأولى بعث اليهم أهل بابل وعليهم يختصر حتى كذبوا أرمياء وجرحوه وحسوه أو أرسل عليهم جالوت فى قول قتادة وقيل بقتل زكريا وشعيا عليهما السلام فى الشجرة ، ولما طاردوه فتحت شجرة فدخلها وبقي طرف ثوبه بارزها فأتوا بمنشار وقطعوا الشجرة وهو فيها . وقال ان المرة الثانية فى قوله (فاذا جاء وعد الآخرة) انها قتل يحيى عليه السلام وروى روايات كثيرة خلاصتها ومجموعها أنه كان عليه السلام فى عهده ملك اسرائيلى اسمه هردوس أولاخت وكان يكرمه ويستشيره فاستشاره الملك فى أن يتزوج بنت امرأة له ففهاه وقال لا تحل لك وقيل كانت المرأة أخته وليست زوجته وقيل كانتا بغين فحققت عليه المرأة وألبست ابنتها ثيابا حراء رقاقا وطيبتها وأرسلتها الى الملك وهو على شرايه وأمرتها أن

تعرض له وانه اذا أرادها أبت حتى يعطيها ما تسأله فاذا أجاب سأله رأس يحيى بن زكريا عليه السلام في طست من ذهب وقيل كانت الملوك اذا تكلمت بشيء على رؤوس الأشهاد ثم لم تمضه نزعته من ملكها فجعل يرجع بين قتله يحيى أو خروجه من ملكه حتى اختار ملكه فقتله (ونذكر أن برنارد شو أخرج هذه الفكرة في روايته سالومي على ماهو معروف) .

هذه هي الروايات المتعددة . ونضرب صفحا عن الخرافات التي سيقته في ذلك حول بختنصر وأن الله مسخه مرة ثورا في البهائم ومرة نسرا في الطيور ومرة أسدا في السباع وغير ذلك من القصص الطوال أو ما قيل من أن دم يحيى صار يغلى ويفور حتى بلغ القمم وأعالى الأسوار .. وانه لم يهدأ حتى ذبح عليه سبعين ألف قتيل ..

ونلاحظ على هذه الروايات جملة أنها اتفقت على أنه « فاذا جاء وعد الآخرة » ليست ظرفا مستقبلا ولا حادثا لم يكن قد وقع بل جعلتها أخبارا عن حادث كان قد وقع قبل نزول القرآن بمثابة قوله « فلما جاء وعد الآخرة » أى المرة الثانية فهي متفقة على أنها تشير الى حوادث كانت قبل الاسلام .

ومجمل ما تدل عليه وقائعهم أنهم تعودوا الافساد ، فلما قتلوا بعض أنبيائهم سلط الله عليهم من يذيقهم العذاب .

هذه هي سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في بنى اسرائيل . نراه فيها كأعظم مايكون عليه الامام المجرب الحصيف ، والقائد القوى السديد ، والسياسى المخنك البعيد النظر .

وقد عانى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم أشد العناء من نفاقهم وزيفهم عن الحق والباسهم الحق بالباطل باسم جدل العلم وتبادل الحجة ، ومن غدرهم ونكثهم وخلفهم ، فلم يتورعوا عن أن يحاربوه بمختلف الأسلحة وأن يشرعوا في وجهه كل باطل ومنكر ، حتى السحر والكهانة ودس السم ، كل ذلك تعرض له النبي عليه صلوات الله وسلامه ، من شعب كان حربا على كل الأنبياء ونصبا وازهاقا للحق وبابا للفتنة والزيف في كل زمان ومكان .

فقابل النبي صلى الله عليه وسلم كل ذلك بما يحسمه .

فأما جدل العلم ، فقد حسمه وأجهز عليه ، اجهاز الحق للباطل وقذف
أباطيلهم بحقه فدمغه وأسكنه .

وأما تفاقمهم فقد قابله رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضوحه وصراحة
مواقفه وحزمه فأبلسهم وأخرج تفاقمهم وزيفهم .

وأما الفتنة والغدر والدسيسة وتحدى السلاح ، فقد قابله بمثله حتى
حطمهم وقصف أشواكهم وأوقعهم في ذل الهزيمة ، ثم مسح يده الكريمة على
جراحهم لما استسلموا وعجزوا عن مكرهم .
وما ذلك الا لخلق فيهم .

لحبهم الدنيا وتعاليمهم وتكبرهم بغير الحق ونكثهم وعودهم واستعمالهم
سلاح العلم في الباطل .

فما من نبي أو مصلح يأمر بالقسط من الناس جاءهم الا اضطهدوه وان
استطاعوا قتلوه .

فقد تعودوا الافساد كلما جاءهم من يهديهم نبذوا اليه أو قتلوه فيسلط
الله عليهم من ينكل بهم ولا يرتدعون وباءوا بغضب من الله وكره من الناس .
فقد روى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال «تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر فيقول
يا عبد الله هذا يهودى ورائى فاقتله » وفى معناه عن أبى هريرة .

وليس هذا قانون بنى اسرائيل بل قانون البشر جميعا وانما ضرب الله
بهم مثلا لما ظهر منهم وكأين من أمة جاءها منذروها فأعرضوا عنهم وفسد
أمرها وأنت ما كان من بنى اسرائيل لا تأمن غضب الله .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لنفسى وللمسلمين من شرور أنفسنا وتوب
اليه ونرجو حسن الخواتم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

المراجع

- ١ - تفسير القرآن الجليل للنسفي - المطبعة الاميرية سنة ١٩٤٣
- ٢ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير - طبعة عيسى البابي الحلبي
- ٣ - مفاتيح الغيب المشهور بالتفسير الكبير للفخر الرازي ج ٥ - المطبعة الخيرية الجمالية بمصر ١٣٠٨ هـ
- ٤ - جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري ج ١٥ - الطبعة الاولى بالمطبعة الاميرية ١٣٢٨ هـ
- ٥ - صحيح البخاري (المتن وفتح البادي شرح الامام بن حجر طبعة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٩٥٩)
- ٦ - سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لابن هشام مراجعة محمد محيى الدين عبد الحميد كتاب التحرير القاهرة ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣)
- ٧ - السيرة النبوية لابن كثير - تحقيق مصطفى عبد الواحد مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٩٦٤ م
- ٨ - بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للامام الكاساني ج ٧ مطبعة الجمالية بمصر ١٣٢٨ - ١٩١٠
- ٩ - الام للامام الشافعي الجزء الرابع (مكتبة الكليات الازهرية بالقاهرة ١٩٦١)
- ١٠ - المذهب في فقه الامام الشافعي للشيرازي - الجزء الثاني - مطبعة عيسى البابي الحلبي
- ١١ - الكامل في التاريخ لابن الاثير - الجزء الاول - المطبعة المنيرية سنة ١٣٤٨ هـ
- ١٢ - حياه محمد - لمحمد حسين هيكل (طبعات مختلفة بدار الكتب المصرية)
- ١٣ - تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام - لاسرائيل دلفستون (ابن ذئيب) لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩١٤ .
- ١٤ - الموسوعة الاسلامية : (arnold, Basset and Hartmann Leyden, London 1913)
- ١٥ - التشريعية الاسلامية والقانون الدولي العام - عل على منصور . المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ١٩٦٥ ومراجع اخرى مشار اليها في مواضعها .

فهرس الكتاب

الموضوع	صفحة
مقدمة	٣
الفصل الأول - صفات بنى اسرائيل واخلاقيهم	٩
الفصل الثانى - الظروف فى المدينة قبل الهجرة	٢١
الفصل الثالث - الهجرة الى المدينة وعهد النبى صلى الله عليه وسلم الى اليهود	٢٧
الفصل الرابع - حرب النفاق	٤٥
الفصل الخامس - الحزم والسيف	٦٦
الفصل السادس - اخراج بنى قينقاع من المدينة	٧٦
الفصل السابع - اجلاء بنى النضير	٨١
الفصل الثامن - غزوة بنى قريظة	٨٥
الفصل التاسع - غزوة خيبر	١٠١
الفصل العاشر - سلم واحسان	١١٢
خاتمة	١٢٣

